

جلان طیشان هرگز



العراف

دارصادر - داربیروت

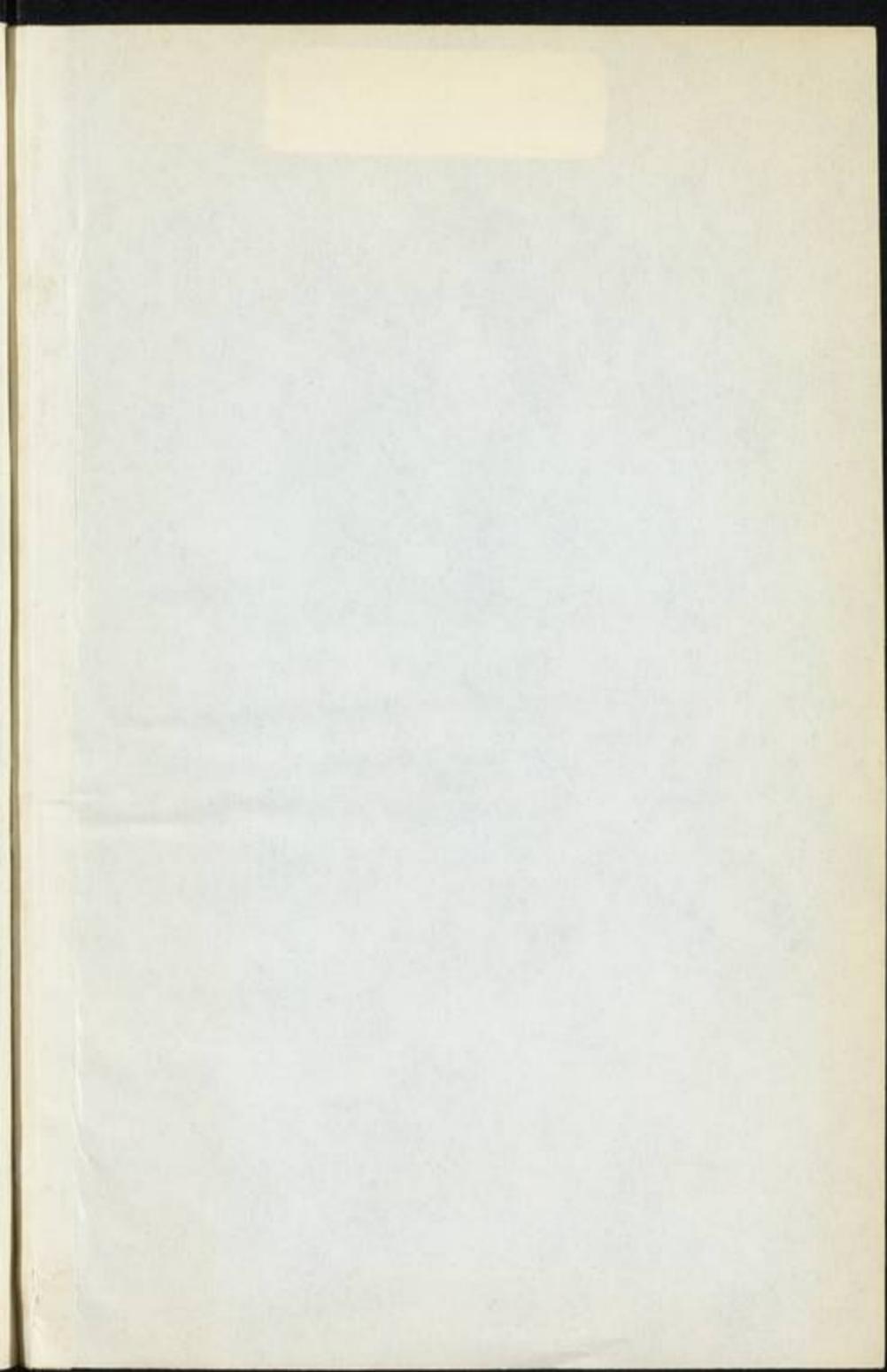
2269
.395
.315
.12

2269.395.315.12
Gibran
al-'Awasif

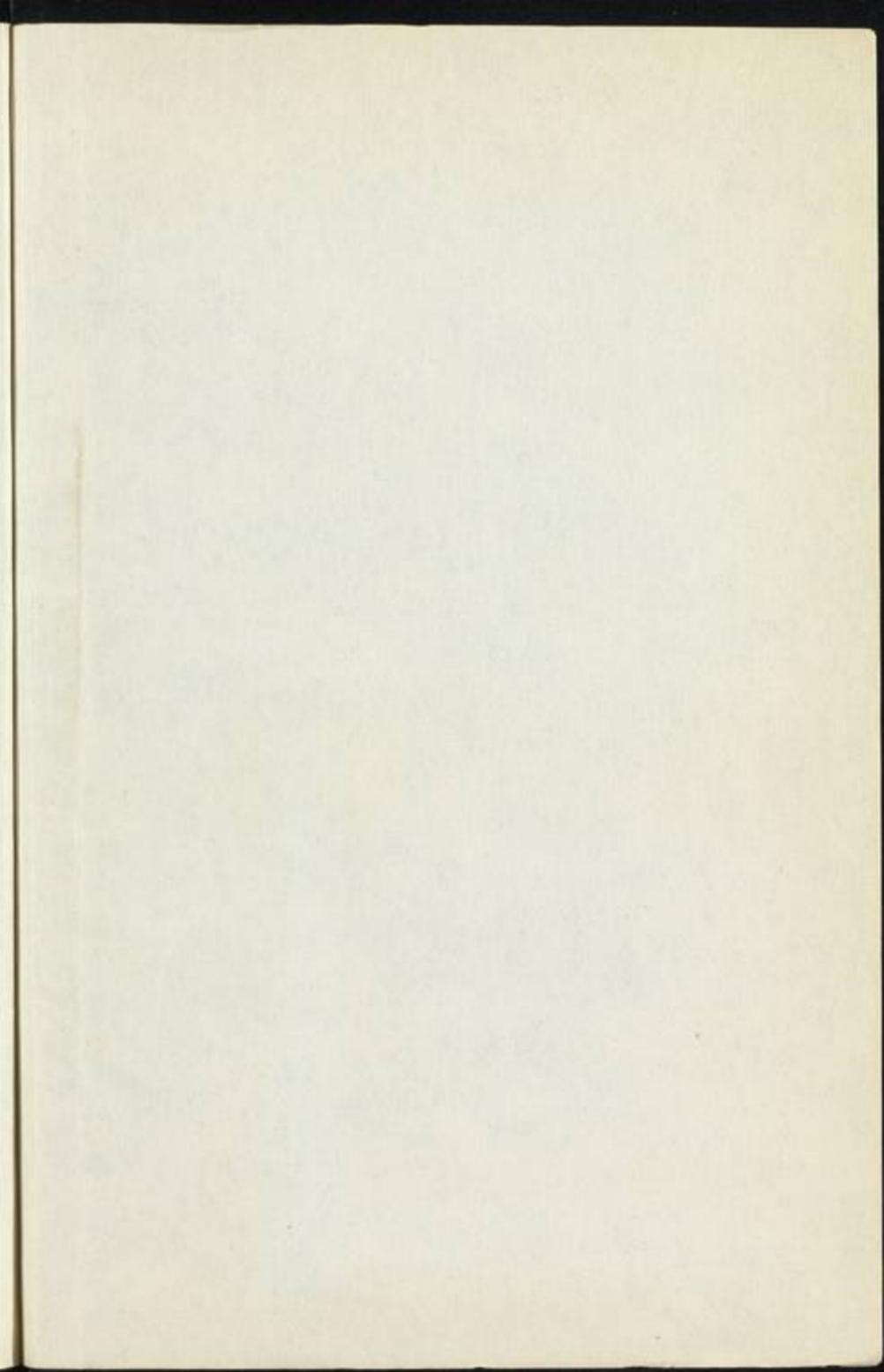
Princeton University Library



32101 072535287



العواصف



Gibran

جبران خليل جبران

العواصف

al-*Awāṣif*

دار الصادر
لطباعة والتوزيع

دار بيروت
لطباعة والتوزيع

بيروت

١٩٥٩

Leiden



حُفَارُ الْقُبُورِ

في وادي ظل الحياة ، المرصوف بالعظام والجحاجم ، سرت
وحيداً في ليلة حجب الضباب نجومها ، وخارق المول سكينتها .
هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع ، المنساب كالحية
الرقطاء ، المترافق كأحلام المجرمين ، وقفت مصغياً همس
الأشباح ، مهدقاً إلى اللاشيء .

ولما انتصف الليل وقد خرجت مواكب الأرواح من
أوكارها ، سمعت وقع أقدام ثقيلة تقترب مني ، فالتفت وإذا
 بشيج جبار مهيب منتصب أمامي ، فصرخت مذعوراً : ماذا
 تريدين مني ؟

فنظر إليّ بعينين مشعشعتين كالمسارج ثم أجاب بهدوء :
 لا أريد شيئاً واريد كل شيء .

قلت : دعني وسأني وسر في سيلك .

فقال مبتسمًا : ما سيللي سوى سيلك ، فأنا سائز حيث
تسير ورابض حيث تربض .

قلت : جئت أطلب الوحدة فخلني ووحدني .

فقال : أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافي ؟

قلت : لست بخائف منك .

فقال : إن لم تكن خائفًا فلماذا ترتجف مثل قصبة أمام الريح ؟

قلت : إن الهواء يتلاعب بيأثواني فترتجف ، أما أنا فلا أرتجف .

فضحك محققاً بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال : أنت جبان تخافي وتخاف أن تخافي ، فخوفك مزدوج ولكنك تحاول إخفاء عني وراء خداع أوهى من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغطيظني .

ثم جلس على الصخر فجلست قسر إرادتي مهدقاً إلى ملامحه الميبة .

وبعد هنئة خلتها ألف عام نظر إليّ مستهزئاً وسائلي قائلًا : ما اسمك ؟

قلت : اسمي عبد الله .

فقال : ما أكثر عباد الله وما أعظم متابعي الله بعيده ! فهلاً دعوت نفسك سيد الشياطين وأضفت بذلك إلى مصائب الشياطين مصيبة جديدة ؟

قلت : اسمي عبد الله وهو اسم عزيز أعطاني إياه والدي

بوم ولادي فلن أبدلها باسم آخر .

فقال : إن بلية الأبناء في هبات الآباء ، ومن لا مجرم
نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير
من الأموات .

فحذرت رأسي مفكراً بكلماته ، مسترجعاً إلى حافظتي رسوم
أحلام سلبية بحقيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرُّهم .
قلت : وماذا عسى أن أفعل بأيامي وليلي لأنفع الناس ؟
قلت : أنظم الشعر وأنثره ، ولي في الحياة آراء أطرحتها
على الناس .

فقال : هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرُّهم .
قلت : وماذا عسى أن أفعل بأيامي وليلي لأنفع الناس ؟
قلت : اخند حفر القبور صناعة تربيع الأحياء من جثث
الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم .

قلت : لم أرَ قط جثث الأموات مكردسة حول المنازل .

فقال : أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام
عاصفة الحياة فتظنهن أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم
لم يجدوا من يدفنهم فظلووا منظر حين فوق الترى ورائحة النتن
تنبعث منهم .

قلت وقد ذهب عنِّي بعض الوجل : وكيف أميز بين الحي
والموت وكلاهما يرتعش أمام العاصفة ؟

فقال : إن الموت يرتعش أمام العاصفة ، أما الحي فيسير

معها راكضاً ولا يقف إلا بوقوفها .

وأتكاً إذ ذاك على ساعده فبانت عضلاته المحبوبة كأصول
سنديانة مملوءة بالعزّم والحياة ، ثم سأله قائلًا : أمتزوج أنت ؟
قلت : نعم وزوجتي امرأة حسناء وأنا كلف بها .

فقال : ما أكثر ذنوبك ومساوئك ! إنما الزواج عبودية
الإنسان لقوة الاستمرار . فإن شئت أن تتحرر طلق امرأتك
وعيش خالياً .

قلت : لي ثلاثة أولاد كبارهم يلعب بالأكبر وصغيرهم
يلوك الكلام ولا يلفظه ، فماذا أفعل بهم ؟

فقال : علمهم حفر القبور ، وأعطي كل واحد رفشاً ثم
دعهم وشأنهم .

قلت : ليس لي طاقة على الوحدة والانفراد ، فقد تعودت
لذة العيش بين زوجتي وصغارتي ، فان تركتهم تركتني السعادة .
فقال : ما حياة المرأة بين زوجته وأولاده سوى شقاء
أسود مستتر وراء طلاء أبيض . ولكن ان كان لا بد من
الزواج فاقترن بصبية من بنات الجن .

قلت مستغرباً : ليس للجن حقيقة فلماذا تخدعني ؟

فقال : ما أغباك فني ! ليس لغير الجن حقيقة ، ومن لم
يكن من الجن كان من عالم الريب والالتباس .

قلت : وهل لصبايا الجن ظرف وجمال ؟

فقال : لمن ظرف لا يزول وجمال لا يذيل .

قلت : أرني جنية فأفع .

فقال : لو كان بإمكانك أن ترى الجنية وتلمسها لما أشرت
عليك بزواجها .

قلت : وما النفع من زوجة لا ترى ولا تمس ؟

فقال : هو نفع بطيء ينبع عن انقراض المخلائق والأموات
الذين يختلجون أمام العاشرة ولا يسيرون معها .

وحوَّل وجهه عني دقيقه ثم عاد فسألني قائلاً : وما دينك ؟

قلت : أؤمن بالله وأكرم أنباءه وأحب الفضيلة ولدي رجاء
بالآخرة .

فقال : هذه ألفاظ رتبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس
بين شفتيك . أما الحقيقة المجردة فهي إنك لا تؤمن بغير نفسك
ولا تكرم سواها ولا تهوى غير ميوها ولا رجاء لك إلا
بنخلودها . منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنها يلقبها بأسماء
مختلفة باختلاف ميوله وأماناته ، فتارة يدعوها البعل وطوراً
المشتري وأخرى الله .

ثم ضحك فانفرجت ملاكه تحت نقاب من المزء والسخرية
وزاد قائلاً : ولكن ما أغرب الذين يعبدون نقوشهم ،
ونقوشهم حيف منته !

ومررت دقيقة وأنا أفكر بأقواله فأجد فيها معانٍ أغرب
من الحياة وأهول من الموت وأعمق من الحقيقة . حتى إذا ما
تاهت فكري بين مظاهره وزرایاه ، وهاجت ميولي لاستعلان
أسراره وخفاياه ، صرخت قائلًا : إن كان لك رب فبربك قل
لي من أنت ؟

قال : أنا رب نفسي .

فقلت : وما اسمك ؟

قال : الإله المجنون .

فقلت : وأين ولدت ؟

قال : في كل مكان .

فقلت : ومني ولدت ؟

قال : في كل زمان .

فقلت : من تعلمك الحكمة ، ومن ذا الذي باح لك
بأسرار الحياة وبباطن الوجود ؟

قال : لست بمحكم ، فالحكمة صفة من صفات البشر
الضعفاء ، بل أنا مجنون قوي أسيير فتميد الأرض تحت قدمي
وأقف فتفق معى مواكب النجوم . وقد تعلمت الاستهزاء
بالبشر من الأبالسة ، وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن
عاشرت ملوك الجن ورافقت جبارية الليل .

فقلت : وماذا تفعل في هذه الأودية الوعرة وكيف تصرف

أيامك وليليك ؟

قال : في الصباح أجدّف على الشمس ، وعند الظبرة أعن
البشر ، وفي المساء أسخر بالطبيعة ، وفي الليل أركع أمام
نفسِي وأعبدُها .

فقلت : وماذا تأكل وماذا تشرب وأين نام ؟

قال : أنا والزمان والبحر لا نام ولكننا نأكل أجساد
البشر ونشرب دماءهم ونتحلى بهائِهم .

وانتصب إذ ذاك مبكلاً ذراعيه على صدره ثم حدّق إلى
عيني * وقال بصوت عميق هادئ : إلى اللقاء ! فأنما ذاهب إلى
حيث تلتم الفيلان والجباره .

فهتفت قائلاً : أمهلي دقيقة فلي سؤال آخر .

فأجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل : إن الآلة
المجازين لا يمْلئون أحداً . فإلى اللقاء .

واختفى عن بصرِي وراء ستائر الدجّي وتركني خافقاً
طائشاً محترماً به وبنفسي .

ولما حولت قدمي عن ذلك المكان سمعت صوته متوججاً
بين تلك الصخور الباسقة قائلاً :

ـ إلى اللقاء ! إلى اللقاء !

وفي اليوم التالي طلقت امرأةٍ وتروجت صبية من بنات
الجن ، ثم أعطيت كل واحد من أطفالِي رفشاً ومحفراً وقلت

لهم : اذهبوا وكلما رأيتم ميتاً واروه في التراب .
ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وأنحد
الأموات ، غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس
من يسعفي !

العبودية

لما الناس عبيد الحياة وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكتنفة بالذل والهوان وليلاتهم مغمورة بالدماء والدموع .
ها قد مرّ سبعة آلاف سنة على ولادي الأولى وللآن لم أرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبّلين .

لقد جئت مشارق الأرض وغارتها ، وطفت في ظل الحياة ونورها ، وشاهدت مواكب الأمم والشعوب سائرة من الكهوف إلى الصروح ، ولكنني لم أرَ للآن غير رقاب منحنية تحت الأنقال ، وسواعد موتقة بالسلاسل ، وركب جاثية أمام الأصنام .

قد اتبعت الإنسان من بابل إلى باريس ، ومن نينوى إلى نيويورك ، ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه ، وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون .

دخلت القصور والمعاهد والهيكل ، ووقفت حداء العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامل عبداً للتاجر ، والتاجر عبداً للجندى ، والجندى عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ،

والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للضم ، والضم تراب
جبلته الشياطين ونصبته فوق راية من جماجم الأموات .
دخلت منازل الأغنياء الأقواء وأكواخ الفقراء الضعفاء ،
ووقفت في المخادع المؤشأة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفي
المأوي المفعمة بأشباح اليأس وأنفاس المثابا ، فرأيت الأطفال
يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع
حروف المجلاء ، والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد
والخنوع ، والنساء يهجنن على أسرة الطاعة والامتنال .

اتبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شاطئ الفرات إلى
مصب النيل إلى جبل سينا إلى ساحات اثينا إلى كنائس
رومية إلى أرقة القسطنطينية إلى بنايات لندن فرأيت العبودية
تسير بكل مكان في موكب مذاجها ويدعونها إلهًا ، ثم
يسكبون الخمور والطيب على قدميها ويدعونها ملكاً ، ثم
يمحرقون البخور أمام قائمتها ويدعونها نبياً ، ثم يخرون
ساجدين لديها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من
أجلها ويدعونها وطنية ، ثم يستسلمون إلى مشيتها ويدعونها
ظل الله على الأرض ، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانיהם
يأرادتها ويدعونها إخاء ومساواة ، ثم يجدون ويخاقدون في
سيلها ويدعونها مالاً وتجارة ... فهي ذات أسماء عديدة
وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة جلوده واحد ، بل هي علة

أزلية أبدية تجيء بأعراض متباعدة وفروع مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة ، وتلقي بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما ترعرعه الفصول.

وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها العبودية العجيبة ، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنسخ تقوسيهم أمام تقاليد جدودهم وتحل عليهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة وقبوراً مكلسة لمظام بالية .

والعبودية الحرساء ، وهي التي تعلق أيام الرجل بأذنياب الزوجة التي يقتها . وتلتصق جسد المرأة بضبع الزوج الذي تكرهه وتحلعلهما من الحياة بنزلة التعل من القدم ...

والعبودية الصماء ، وهي التي تكره الأفراد على اتباع مشارب محظتهم والتلون بالآلهة والارتداء بأزيائه فيصبحون من الأصوات كرجع الصدى ومن الأجسام كالخيالات .

والعبودية العرجاء ، وهي التي تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة المحتالين ، وتسلم عزم الأقوباء إلى أهواه الطامعين بالمجده والاشتهاي فيمسون مثل آلات تحركها الأصابع ثم توقفها ثم تكسرها .

والعبودية الشمطاء ، وهي التي تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء المتسع إلى منازل الشقاء حيث تقام الحاجة بجانب

الفاواة ، ويقطن الذل في جوار القنوط ، فيشبون تعاه
ويعيشون مجرمين ويموتون مرذلين .

والعبودية الرقطاء ، وهي التي تبتاع الأشياء بغير ألقاها ،
وتسمى الأمور بغير أسمائها ، فتدعوا الاحتيال ذكاها ،
والثرة معرفة ، والضعف ليناً ، والجناة إباء .

والعبودية العوجاء ، وهي التي تحرّك بالحروف ألسنة الضعفاء
فيتكلمون بما لا يشعرون ، ويتظاهرون بما لا يضرون ،
ويصبحون بين أيدي المسكنة مثل ثوب تطويه وتنشره .

والعبودية الخدباء ، وهي التي تقود قوماً بشرائع قوم
آخرين .

والعبودية الجرباء ، وهي التي تتوج أبناء الملوك ملوّكًا .

والعبودية السوداء ، وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين
الأبراء .

والعبودية للعبودية نفسها هي قوة الاستمرار .

*

ولما تعبت من ملاحقة الأجيال ، ومللت النظر إلى
مواكب الشعوب والأمم ، جلست وحيداً في وادي الأشباح
حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربيض أرواح الأزمنة
الآتية . هناك رأيت شعراً هزيلاً يسير منفرداً محدقاً إلى وجه
الشمس فسألته : من انت وما اسمك ؟

قال : اسمي الحرية .

قلت : وأين أبناؤك ؟

قال : واحد مات مصلوباً وواحد مات بجنوناً وواحد

لم يولد بعد .

ثم توارى عن عيني وراء الضباب .

المليك السجين

خففت عنك أهلاً الملك الأسير ، فلست في سجنك أشد بلاء
مني في جسدي .

اربض وكن متجلداً يا أبا الأهواز ، فالاضطراب أمام
النواب حريريٌّ بينات آوى ؛ ولا يحمل بالملوك المجنونين
سوى الاستهزاء بالسجن والسبان .

سكن روعك يا فتى العزم وانظر إليَّ فانا بين عبيد
الحياة مثلث بين قضبان القفص ، وما الفرق بيننا سوى حلم
مزعج بجاور روحي ولكنه يخشى الاقتراب إليك .

كلانا منفي عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه ، فخفقنا
عليك جائشك وكن مثلي صابراً على مضض الأيام والليالي ،
ساخراً بهؤلاء الضعفاء الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم
أفرادهم .

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش " لا يسمعون ؟
لقد صرخت قبلك في آذانهم فلم أستوقف غير أشباح
الدجى ، وتفحصت مثلث طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبان
يستبسيل متجرراً أمام المقيدين بالسلاسل ، وضعيف يترفع

متصلباً أمام المسجونين في الأقباصل .
انظر إليها الملوك الجبار ، انظر إلى هؤلاء المحظوظين بسجنك
الآن ، تفوس في وجوههم تجد في ملامحهم ما كنت تراه في
سحنات أدنى رعابك وأعواانك في مجاهل الصحراء ، فمنهم
من يشبه الأربن بضعف قلبه ، ومنهم من يتأمل الثعلب
باحتياله ، ومنهم من يضارع الأفعى بخبيثه ، ولكن ليس
بینهم من له سلامة الأربن وذكاء الثعلب وحكمة الأفعى .
انظر فهذا كالخنزير فذارة أما حمه فلا يؤكل . وهذا
كالجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع . وذلك كالحمار غباء
ولكنه يشي على الاثنين . وذلك كالغراب شواماً ولكنه يبيع
نعييه في المياكل . وتلك كالطاوس تهألاً واعجاهاً أما ريشها
فمستعار .

وانظر إليها السلطان المبيب ، انظر إلى تلك القصور
والمعاهد ، فهي أو كار ضيقة يسكنها الإنسان مفاخرآً بزخارف
سقوفها التي تحجبه عن النجوم ، مغطياً بصلابة جدرانها التي
تفصله عن أشعة الشمس . هي كهوف مظلمة تذبل في ظلامها
أزاهر الشباب ، وتنتمد في زواياها جمرة الحب ، وتنتحول
في فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان . هي سراديب
غريبة ينمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع ، وينتصب
فيها نخت العروس بقرب نعش الميت .

وانظر أيها الأسير الجليل ، انظر إلى تلك الشوارع المنفرجة
 والأزقة الضيقة ، فهي أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين
 منعرجاتها وتحتبي ، الخوارج بين جنباتها . هي ساحة قتال
 مستتب بين الرغائب والرغائب ، تتنازل فيها الأرواح متضاربة
 ولكن بغير السيف ، وتصارع متناهشة ولكن بغير الأنابيب .
 بل هي غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة
 الأذناب ، مصقوله القرون ، لا تقضي شرائعها بقاء الأنساب
 بل بدوام الأروع والأحيل ، ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل
 والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب . أما ملوكمها فليست
 أبداً نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبرائحة
 الصبع وألسنة العقارب ونقيق الصفادع .

◦

فدتك روحني أيها الملك السجين ، فقد أطلت الوقوف
 لديك وأسلبت بالكلام أمامك . ولكن هو القلب المخلوع عن
 عرشه يتعزى بالملوك المخلوعين ، وهي النفس السجينة المستوحوحة
 تستأنس بالسجنة والمستوحوحين . فسامح فتي يلوث الكلام متسللاً
 به عن الطعام ، ويرتشف الأفكار مستعيضاً بها عن الشراب .
 إلى اللقاء أيها الجبار المهيـب ، فإن لم يكن اللقاء في هذا
 العالم الغريب فسيكون في عالم الأشباح حيث تجتمع أرواح
 الملوك بأرواح الشهداء .

يسوع المصلوب

كتبت يوم الجمعة الحزينة

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية من رقادها العميق وتنقذ أمام أشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلقة بالدموع نحو جبل الجلجلة لتوى يسوع الناصري معلقاً على خشبة الصليب . . . وعندما تغيب الشمس عن مآئي النهار تعود الإنسانية فتركمع مصلية أمام الأصوات المنتصبة على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل .

اليوم تقود الذكرى أرواح المسيحيين من جميع أقطار العالم إلى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفاً صفوفاً قارعين صدورهم ، محدقين إلى شبح مكمل بالأشواك ، باسط ذراعيه أمام اللامباهية ، ناظر من وراء حجاب الموت إلى أعماق الحياة . . . ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون فيضطجعوا جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لف الجمالة والخمول .

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلسفه كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء أو ديتهم الخيالية

ويقفون جميعهم على جبل عالي صامتين متهددين مصغين إلى صوت فتى يقول لقاتلته: «يا أبناه، اغفر لهم لأنهم لا يدركون ما يفعلون» ... ولكن لا تكتنف السكينة أصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء فيكتفوا أرواحهم بصفحات الكتب البالية.

إن النساء المشفولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحل والحلل يخرجن اليوم من منازلن ليشاهدن المرأة الخزينة الواقفة أمام الصليب وقوف الشجرة اللينة أمام عواصف الشتاء، ويقتربن منها ليسمعن أنينها العميق وغضانتها الآلية.

أما الفتىان والصبايا الرااكضون مع تيار الأيام إلى حيث لا يدرؤن فيقفون اليوم هنيهة ويلتقتون إلى الوراء ليروا الصبية المجدلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدميِّ رجل منتصب بين الأرض والسماء. ولكن عندما تقل عيونهم النظر إلى هذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين.

في مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصري ثم تطبق أجفانها وتنام نوماً عميقاً. أما الربيع فيظل مستيقظاً متبسماً سائراً حتى يصير صيفاً مذهب الملابس معطر الأذىال.

الإنسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال. ولو كانت الإنسانية رجلاً لفرحت بمجدهم وعظتهم.

الإنسانية طفلاً تقف متاؤلة بجانب الطائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الماحلة التي تهـر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقدار المتننة .

الإنسانية ترى يسوع الناصري مولوداً كالفقرااء عائشاً كالماسكين مهاناً كالضعفاء مصلوباً كال مجرمين فتبكيه وترثيه وتندبه وهذا كل ما تفعله لتكريمه .

منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع ، ويُسوع كان قويّاً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقة .

ما عاش يسوع مسكيناً خائفًا ولم يمت شاكياً متوجعاً بل عاش ثائراً وصلب متربداً ومات جباراً .

لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الأجنحة الموعنة .

لم يحيي يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية .

لم يخف يسوع مخطهديه ولم يخش أعداءه ولم يتوجع أمام قاتليه بل كان حُرّاً على رؤوس الأشهاد جريئاً أمام الظلم والاستبداد ، يرى البثور الكريهة فيبعضها ، ويسمع الشر متكلماً فيخرسه ، ويلتقي الرياء فيصرعه .

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبني

من حجاراتها الأديرة والصومع ، ويستهوي الرجال الأشداء
ليقودهم قسوساً ورهباناً ، بل جاء ليثبت في فضاء هذا العالم
روحًا جديدة قوية تقوّض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم
وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة
على أجساد الضعفاء المساكين .

لم يجيء يسوع لعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد
الضخمة في جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة ،
بل جاء ليجعل قلب الانسان هيكلًا ونفسه مذبحًا وعقله كاهناً.
هذا ما صنعه يسوع الناصري وهذه هي المبادئ التي صلب
لأجلها مختاراً ، ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متلهلين
منشددين أهزيج الغلة والانتصار .

وأنت أيها الجبار المصلوب ، الناظر من أعلى الجبلجة
إلى مواكب الأجيال ، السامع ضجيج الأمم ، الفاهم أحلام
الأبدية ، أنت على خشبة الصليب المضربة بالدماء أكثر جلالاً
ومهابة من ألف ملك على ألف عرش في ألف مملكة . بل أنت
بين النزع والموت أشد هولاً وبطشاً من ألف قائد في ألف
جيش في ألف معركة .

أنت بكلّ ابتك أشد فرحاً من الريع بازهاره ، أنت
بأوجاعك أهداً بالأ من الملائكة بسمائهم ، وأنت بين الجنادين
أكثر حرية من نور الشمس .

إن ما كليل الشوك على رأسك هو أجل وأجمل من تاج
بهرام ، والمسمار في كفك أسمى وأفخم من صوجان المشتري ،
و قطرات الدماء على قدميك أسمى لمعاناً من قلائد عشتروت .
فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لأنهم لا يدركون
كيف ينوحون على نفوسهم ، واغفر لهم لأنهم لا يعلمون
أنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور .

علی باب الہیکل

قد طهرت 'شفتي' بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ، ولما
فتحت شفتي' للكلام وجدتني أخرس .
كنت أترنم بأغاني الحب قبل أن أعرفه ، ولما عرفته
تحولت الألفاظ في فمي إلى هاث ضئيل ، والأنقام في صدري
إلى سكينة عميقة .

وكنت أجيّها الناس فيها ماضي تسألونني عن غرائب الحب
وعجائبـه ، فكنت أحدهم وأفتعلـم . أما الآن ، وقد غمرني
الحب بوضاحـه ، فجئت بدورـي أسألكـم عن مسالـكه ومزـايـاه ،
فهل يـنـكم من يـحـبـينـي ؟ جـئتـ أـسـالـكـمـ عـماـ يـأـتـيـ وـأـسـتـخـبـرـكـمـ عنـ
نـفـسـيـ ، فـهـلـ يـنـكمـ منـ يـسـطـعـ أـنـ يـبـيـنـ قـلـبيـ لـقـلـيـ وـيـوـضـعـ
ذـاـقـيـ لـذـاـقـيـ !

ألا فاخبروني ما هذه الشعلة التي تتقد في صدري وتلتهم
فواي وتدبب عواطفني ومماليكي !
وما هذه الأيدي الخفية الناعمة الحشنة التي تقبض على روحي
في ساعات الوحدة والانفراد ، وتسكب في كبدىي خمرة
يمزوجة ببرارة اللذة وحلوة الأوجاع ؟

وما هذه الأجنبية التي ترفرف حول مضجعي في سكينة
الليل فأشهر مترقباً ما لا أعرفه ، مصغياً إلى ما لا أسمعه ،
محدفاً إلى ما لا أراه ، مفكراً بما لا أفهمه ، شاعراً بما لا
ادركه ، متاؤها لأن في التأوه غصات أحبّ لدى من رته
الضحك والابتهاج ، مستسلماً إلى قوة غير منظورة تحييني
ونحييني ثم تحييني وتحييني حتى يطلع الفجر ويغلاً النور زوايا غرفتي
فأنام إذ ذاك وبين أحفلاني الذابلة ترتعش أشباح اليقظة وعلى
فراشي الحجري تهابيل خيالات الأحلام .

وَمَا هَذَا الَّذِي نَدْعُوهُ حَبّاً ؟
أَخْبُرُونِي مَا هَذَا السُّرُّ الْحَقِيقِيُّ الْكَامِنُ خَلْفَ الدُّهُورِ الْمُخْتَبِيِّ ؟
وَرَاءِ الْمَرْئَيَاتِ السَاكِنِ فِي ضَمِيرِ الْوِجُودِ ؟
مَا هَذِهِ الْفَكْرَةُ الْمُطْلَقَةُ الَّتِي تَجْبِيُءُ سَبِيلًا جَمِيعَ النَّتَائِجِ وَتَأْتِي
نَتْيَةً جَمِيعَ الْأَسْبَابِ ؟
مَا هَذِهِ الْيِقْظَةُ الَّتِي تَتَنَاهُولُ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ وَتَبْتَدَعُ مِنْهُما
حَلْمًا أَغْرِبَ مِنَ الْحَيَاةِ وَأَعْقَمَ مِنَ الْمَوْتِ ؟
أَخْبُرُونِي أَيْهَا النَّاسُ - أَخْبُرُونِي هَلْ يَبْيَنُوكُمْ مِنْ لَا يُسْتَيقِظُ
مِنْ رُقْدَةِ الْحَيَاةِ إِذَا مَا لَمْسَ الْحُبَّ رُوحَهُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ ؟
هَلْ يَبْيَنُوكُمْ مِنْ لَا يَتَرَكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَمَسْقَطَ رَأْسِهِ عِنْدَمَا تَنَادِيهِ
الصَّيْبَةُ الَّتِي أَحْبَبَهَا قَبْلَهُ ؟

هل فيكم من لا يغتر البحر ويقطع الصحاري ويختار الجبال
 والأودية ليلتقي المرأة التي اختارتها روحه ؟
 أي فتى لا يتبع قلبه إلى أقصى الأرض إذا كان له في
 أقصى الأرض حبيبة يستطيع نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس
 يديها ويستعدب رقة صوتها ؟
 أي بشرى لا يحرق نفسه بخوراً أمام إله يسمع ابتهاله
 ويستجيب صلواته ؟

°

وقفـت بالأمس على بـاب المـيـكل أـسـأـل العـابـرـين عن خـفـايا
 الحـبـ وـمـزـاـيـاهـ .

فـمـرـ أمـاميـ كـهـلـ مـهـزـولـ القـامـةـ كـاسـفـ الـوـجـهـ وـقـالـ
 مـتـأـواـهـاـ : الحـبـ ضـعـفـ فـطـريـ وـرـثـاءـ عنـ الإـنـسـانـ الـأـوـلـ .
 وـمـرـ فـتـيـ قـوـيـ الـجـسـمـ مـفـتـولـ السـاعـدـينـ وـقـالـ مـتـرـغـاـ : الحـبـ
 عـزـمـ يـلـازـمـ كـيـانـاـ وـيـصـلـ حـاضـرـناـ بـاضـيـ الـأـجـيـالـ وـمـسـتـقـبـلـهاـ .
 وـمـرـتـ اـمـرـأـةـ كـثـيـةـ الـعـيـنـينـ وـقـالتـ مـتـنـهـدـةـ: الحـبـ سـمـ فـتـالـ
 تـنـفـسـهـ الـأـفـاعـيـ السـوـدـاءـ الـمـقـلـبـةـ فـيـ كـهـوفـ الـجـحـيمـ فـيـسـيلـ مـنـشـرـأـ
 فـيـ الـفـضـاءـ ثـمـ يـبـطـ مـغـلـفـاـ بـقـطـرـاتـ النـدىـ فـتـرـشـهـ الـأـرـوـاحـ الـظـامـةـ
 فـتـسـكـرـ دـقـيقـةـ ثـمـ تـصـحـوـ عـامـاـ ثـمـ تـوـتـ دـهـراـ .

وـمـرـتـ صـبـيـةـ مـوـرـدـةـ الـوـجـنـتـينـ وـقـالتـ مـبـتـسـمـةـ: الحـبـ
 كـوـثـرـ تـسـكـبـهـ عـرـائـسـ الـفـجـرـ فـيـ الـأـرـوـاحـ الـقـوـيـةـ فـيـجـعـلـهاـ تـعـالـىـ

متجمدة أمام كواكب الليل وتسع مترفة أمام شمس النهار .
ومرَّ رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابساً :
الحب جهالة عمياء تبتديء بيده الشباب وتنهي ب نهايته .

ومرَّ رجل ذو وجه صبيح وملامح منفرجة وقال فرحاً :
الحب معرفة علوية تثير بصائرنا فترى الأشياء كما يراها الآلة .
ومرَّ أعمى يحس الأرض بعказه وقال منتعباً : الحب

ضباب كثيف يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم
الوجود أو يجعلها لا ترى سوى أشباح ميوتها مرتعشة بين
الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتياً من خلايا الوادي .

ومرَّ شاب يحمل قيثارة وقال منغماً : الحب شاعر سحري
ينشق من أعماق الذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم
موكباً سائراً في مروج خضراء والحياة حلمًا جميلاً منتصباً
بين اليقظة واليقطة .

ومرَّ هرم منحنى الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال
مرتعشاً : الحب راحة الجسم في سكينة القبر وسلامة النفس في
أعماق الأبدية .

ومرَّ طفل ابن خمس وهتف ضاحكاً : الحب أبي والحب
أمِّي ، ولا يعرف الحب سوى أبي وأمي .

وانقضى النهار والناس يرون أمام الهيكل وكل يصور
نفسه متكلماً عن الحب ويبيوح بأمانية معلنًا سر الحياة .

ولما جاء المساء وسكتت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً
من داخل الميكل يقول : الحياة نصفان: نصف متجلد ونصف
ملتهب . فالحب هو النصف الملتهب .

فدخلت الميكل إذ ذاك وسجدت راكعاً مبتلأ مصليناً
هاتقاً : اجعلني يا رب طعاماً للتهيب - اجعلني أهلاً للنار المقدسة . آمين .

ايها الليل

يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين .

يا ليل الأشباح والأرواح والآخيلة .

يا ليل الشوق والصباة والتذكرة .

أيها الجبار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ،
المقلد سيف الرهبة ، المتوج بالقرم ، المتشع بثوب السكوت ،
الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة ، المصفي بألف أذن إلى آفة
الموت والعدم .

أنت ظلام يرينا أنوار السماء ، والنهر نور يغمرنا بظلمة
الأرض .

أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيبة الانتهاء ، والنهر غرور
يوقفنا كالعميان في عالم المقايس والكمية .

أنت هدوء يبيع بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في
الفضاء العلوي ، والنهر ضجيج يثير بعوامله نفوس المنظرحين
بين سنابك المقاصد والغرائب .

أنت عادل يجمع بين جنحى الكرى أحلام الضعفاء بما في
الأقوباء ، وأنت شفوق يغضض بأصابعه الخفية أجفان النساء

ويمحل قلوبهم إلى عالم أقل قساوة من هذا العالم .
بين طيات أثوابك الزرقاء يسكن المحبون أنفاسهم ، وعلى
قدميك الملفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات
دموعهم ، وفي راحتيك المعطرتين بطيب الأودية يضيع الغراء
تهنّدات شوقهم وحنينهم . فأنت نديم المحبين وأئيس المستوحشين
ورفيق الغراء والمستوحشين .

في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستيقن
قلوب الأنبياء ، وبين ثنايا خفاياك ترتعش قرائح المفكرين .
فأنت ملقن الشعراء والموحي إلى الأنبياء والموعز إلى المفكرين
والمتأملين .

عندما ملئت نفسى البشر وتعبت أجفاني من النظر إلى وجه
النهار سرت إلى تلك الحقول البعيدة حيث تجتمع أشباح
الأزمنة الغابرة .

هناك وقفت أمام كائن أقلم جامد مرتعش سائر بآلف قدم
 فوق السهول والجبال والأودية .

هناك حدقـت ساخـساً بعيـون الدجـي ، مصـغـياً لـخفـيف
الأـجنـحةـ غيرـ المـنـظـورـةـ ، شـاعـراً بـلامـسـ مـلـابـسـ السـكـوتـ ،
مسـبـسـلاً أـمـامـ مـخـاـوفـ الـظـلـامـ .

هـنـاكـ رـأـيـتكـ أـيـاهـ اللـيلـ شـبـحاًـ هـائـلاًـ جـمـيلاًـ مـنـتصـباًـ بـيـنـ

الأرض والسماء ، متشحًا بالسحاب ، منطبقاً بالضباب ، ضاحكاً
من الشمس ، ساخراً بالنهار ، مستهزئاً بالعبيد الساهرين أمام
الآصنام ، غاضباً على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج ،
محملقاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب أسرة الأطفال ، باكيًا
لابتسم الساقطات ، مبتسمًا لبكاء العشاق ، رافعاً بيمنيك كبار
القلوب ، ماحقاً بقدميك صغار النفوس .

هناك رأيتك أهيا الليل ورأيتك ، فكنت بهولك لي أباً
و كنت بأحلامي لك ابناً ، فازجحت من بيننا ستائر الأشكال
وتزق عن وجهينا نقاب الظن والتخيّن ، فأجحشت لي أسرارك
ونياتك ، وأبنت لك أمنيّ وآمالي ، حتى إذا تحولت أهواك
إلى أنقام أعدب من همس الأزهار ، وتبدلت مخاوي في بأس
أطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتني إليك ، وأجلستني على
منكبيك ، وعلمت عينيَّ النظر ، وعلمت اذنيَّ السمع ،
وعلمت شفقيَّ الكلام ، وعلمت قلبي حبة ما لا يحبه الناس
وكره ما لا يكرهونه ، ثم لمست بأناملك أفكاري فتدفقت
أفكاري نهرًا راكضاً متوفناً بحرف الأعشاب الذابلة ،
ثم قبّلت بشفتيك روحي فتمايلت روحي شعلة متقدة تلتهم
الانصاب اليابسة .

لقد صحبتك أهيا الليل حتى صرت شبهاً بك ، وألفتك حتى
مازجت ميولي بيولك ، وأحببتك حتى تحول وجداني إلى صورة

صغررة لوجودك . ففي نفسي المظلمة كواكب ملتمعة ينثرها
الوجود عند المساء وتلتقطها الهواجس في الصباح . وفي قلبي
الرقيق فمر يسعى تارةً في فضاء متلبد بالغيوم وطوراً في خلاء
مفعم بعواكب الاحلام . وفي روحني الساهرة سكينة تبع
بتفاعلها سرائر المعين وترجع خلابها صدى صوات المبعدين .
وتحول رأسي غلاف من السحر تزقه حشرجة المنازعين ثم تخيطه
أغاني المشتبئين .

أنا مثلك أهيا الليل وهل يحسبني الناس مفاخرأ إذا ما تشبهت
بك وهم إذا تفاخر وايتشبهون بالنار !

أنا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه .

أنا مثلك بيمولي وأحلامي وخلقني وأخلاقي .

أنا مثلك وان لم يتوجني المساء بغيره الذهبية .

أنا مثلك وان لم يوضع الصباح أذيليا بأسعنته الوردية .

أنا مثلك وان لم أكن منطقاً بال مجرة .

أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمي بدء
وليس لأعمالي نهاية ، فإذا ما انتصبت الأرواح متابهة بنور
أفراحتها تعالى روحي متجمدة بظلمام كابتها .

أنا مثلك أهيا الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلني .

الجنية الساحرة

إلى أين تسيرين في أيتها الساحرة ؟
حتى مَ أتبعك على هذه الطريق الوعرة ، المناسبة بين
الصخور ، المفرومة بالأشواك ، المتضاعدة بأقدامنا نحو الأعلى ،
المابطة بمنفسينا إلى الأعماق ؟

قد تمسكت بأذيالك ومررت وراءك كطفل يلاحق أمه ،
متناصياً ما في من الأحلام ، محدقاً إلى ما فيك من الجمال ،
متعاماً عن مواكب الأشباح المتطايرة حول رأسي ، مجذوباً
بالقوة الخفية الكامنة في جسدي .

ففي بي هنئة لأرى وجهك . انظري إلى دقة لعلي
أرى في عينيك أسرار صدرك ، وأفهم من ملامحك محابات
نفسك .

ففي قليلاً أيتها الجنية ، فقد مللت المسير وارتعدت روحني
من مخاوف الطريق . ففي فقد بلغنا ملتقى السبل حيث يعانق
الموت الحياة ، وإن أسيير خطوة أخرى حتى تستعلن روحي
نيات روحك ويستوضع قلبي خزائن قلبك .

اسمعي أيتها الجنيّة الساحرة .

كنت بالأمس طائراً حرّاً أنتقل بين السوافي وأسبح في
الفضاء وأجلس على أطراف الفصون عند المساء متّماًلاً بالقصور
والمياكل في مدينة الفيوم المتلونة التي تبنيها الشمس عند
الأصل وتهدمها قبل الغروب .

بل كنت كالفكر أسير منفرداً في مشارق الأرض
ومغاربها ، فرحاً بمحاسن الحياة ومذانتها ، مستقصياً خفايا
الوجود وأسراره .

بل كنت كحلم أسعى تحت جنح الليل وأدخل من شقوق
النوافذ إلى خدور العذاري الناثفات وأتلعب بعواطفهن .
ثم أقف بجانب أمّرة الفتیان واثير ميوهم . ثم أجلس بقرب
مضاجع الشیوخ وأستجلي أفکارهم .

والیوم ، وقد لقيتك أيتها الساحرة ، وتسنمیت بقبل
پدیک ، فقد أصبحت مثل أسير أجرٌ قيمودي إلى حيث لا
أدری ، بل صرت مثل نشوان أستزيد من الحمرة التي سلبتني
إرادتي وألّم الكف التي صفت وجهي .

ولكن ففي قليلاً أيتها الساحرة ، فها قد استرجعت قوائي
وكسرت القيود التي برت قدمي وسحقت الكأس التي شربت
منها السم الذي استطبيته . فماذا تريدين أن تفعل وعلى أية
طريق تريدين أن نسير !

قد استرددت حرريني فهل ترضين بي رفقاء حرتاً « يحدق إلى
وجه الشمس بأجفان جامدة ويقبض على النار بأصابع غير
مرتعشة ؟ »

لقد فتحت جناحي ثانية فهل تصحبين فتي يصرف الأيام متنقلًا
كالنسر بين الجبال ، ويقضي الليالي رابضًا كالأسد في الصحراء ؟
هل تكتفين بمحبِّ رجل يتخد الحب نديماً وياهاه سيداً ؟
هل تقعنين بشغف قلب يهم ولا يستسلم ويتشعل ولكنه
لا يذوب ؟

هل ترتاحين إلى ميل نفسي ترتعش أمام العاصفة ولكنها لا
تهصر ، وتثور مع الزوابع ولكنها لا تُقْلع من مكانها ؟
هل ترضين بي صاحباً لا يستعبد ولا يُستعبد ؟
إذاً هذه يدي فهزِّها بيده الجميلة . وهذا جسدي فضيمه
بذراعيك الناعمتين . وهذا فمي فقبليه قبلة طويلة عميقة خرساء .

قبل الانتحار

في هذه الغرفة المنفردة الماءدة قد جلست بالأمس المرأة التي
أحبها قلبي .

إلى هذه المسائد الوردية الناعمة قد ألقت رأسها الجميل ،
ومن هذه الكأس البلورية قد شربت جرعة من الحمر ،
مزوجة بقطرة من العطر .

كل ذلك قد كان بالأمس والأمس حلم لا يعود ، أما
اليوم فقد ذهبت المرأة التي أحبها قلبي إلى أرض بعيدة خالية
مقرفة باردة تدعى بلاد الخل والنسوان .

إن آثار أصابع المرأة التي أحبها قلبي لم تزل ظاهرة على
بلور مرآتي ، وعطر أنفاسها ما يروح متضوياً بين طيات ثوابي ،
وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلي . ولكن المرأة
نفسها — المرأة التي أحبها قلبي — قد رحلت إلى مكان قصي
يدعى وادي المجر والسلوان ، أما آثار أصابعها وعطر هائتها
وأشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حق صباح الغد وعند
ذلك أفتح نوافذ منزلي لتدخل أمواج الهواء وتجرف بياراتها
كل ما تركته لي تلك الساحرة الحسنا .

إن رسم المرأة التي أحبها قلبي لم يزل معلقاً بجانب
مضجعي ؛ ورسائل الحب التي بعثت بها إلى "ما برحت في العلبة
الفضية المرصعة بالقيق والمرجان ، وذراة الشعر الذهبية التي
جحتي بها تذكاراً لم تخرج قط من الغلاف الحريري المبطن
بالمسك والبخور – جميع هذه الأشياء ستبقى في أماكنها حتى
الصبح – وعند بجيء الصباح افتح نوافذ منزلي ليدخل الهواء
ويمحلها إلى ظلمة العدم إلى حيث تقطن السكينة الخرساء .

إن المرأة التي أحبها قلبي شبيهة بالنساء اللواتي أحبتهن قلوبكم
أيها الفتيان . هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلة من وداعنة الحمامات
وتقلبات الأفني وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة
البيضاء وهوول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من
زبد البحر .

وقد عرفت المرأة التي أحبها قلبي أيام الطفولة فكنت
أركض وراءها في الحقول وأتنسق بأذيلها في الشوارع .

وعرفتها أيام الصبا فكنت أرى خيال وجهها في وجوه
الكتب والأسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم السماء
وأسمع نعمة صوتها منصاعدة مع خرير السوافي .

وعرفتها أيام الرجولة فكنت أجالسها محذناً وأسألها مستفتيناً
وأقترب منها شاكياً ما في قلبي من الأوجاع باسطاً ما في
روحى من الأسرار .

كل ذلك كان بالأمس والأمس حلم لا يعود ، اما اليوم
فقد ذهبت تلك المرأة إلى أرض بعيدة خالية مغفرة باردة تدعى
بلاد الخل والنسوان .

◦

أما امم المرأة التي أحبها قلبي فهو الحياة .
فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا ، وتستغرى
أرواحنا ، وتفجر وجداننا بالوعود ، فان مطلت أماتت فينا
الصبر وإن برئت أيقظت فينا الملل .

الحياة امرأة تستحوم بدموع عشاقها وتعطر بدماء قتلها .
الحياة امرأة ترتدي الأيام البيضاء المبطنة بالليلي السوداء .
الحياة امرأة ترضى بالقلب البشري خليلاً وتتأبه حليلاً .
الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن ير عهرها يكره
جمالها .

يا بني أمي

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أتريدون أن أبني لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة
بالكلام وهيا كل مسقوفة بالأحلام ، أم تريدون أن أهدم ما
بناه الكاذبون والجبناء وأنقض ما رفعه المراؤون والخباء ؟

ماذا تريدون أن أفعل يا بني امي ؟

أأهدل كالحمام لأرضيك أم أزجر كالأسد لأرضي نفسي ؟
قد غنست لكم فلم ترقصوا ونحتُ أمامكم فلم تبكوا ،
فهل تريدون أن أترنم وأنوح في وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوى جوعاً وخبز المعرفة أوفر من حجارة
الأودية ، ولكنكم لا تأكلون وقلوبكم تختال عطشاً ومناهل
الحياة تجري كالسوافي حول منازلكم فلماذا لا تشربون ؟
للبحر مدّ وجزرٌ ، وللقمم نقص وكمال ، وللزمن صيف
وشتاء ، أما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير ، فلماذا
تحاولون تشويه وجه الحق ؟

ناديتكم في سكينة الليل لأريك جمال البدر وهيبة
الكتاكيت فهبيتم من مضاجعكم مذعورين وقضتم على سيفكم

ورماحكم حارخين : أين العدو لصرعه ؟ عند الصباح وقد جاء
العدو بخيله ورجله ناديتكم فلم تهبو من رقادكم بل ظلتم
تغالبون مواكب الأحلام .

قلت لكم تعالوا نصعد إلى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم
فأجبتم قائلين : في أعماق هذا الوادي عاش آباونا وجدودنا
وفي ظلاله ماتوا وفي كهوفه قبروا فكيف نتركه ونذهب
إلى حيث لم يذهبوا ؟

قلت لكم هلموا نذهب إلى السهل لأريكم مناجم الذهب
وكنوز الأرض فأجبتم قائلين : في السهل تربض اللصوص
وقطاع الطرق .

قلت لكم تعالوا نذهب إلى الساحل حيث يعطي البحر
خيراته فأجبتم قائلين : ضجيج الموج يخفف أرواحنا وهو
الأعمق يحيي أجسادنا .

لقد كنت أحبكم يا بني أمي وقد أضر في الحب ولم ينفعكم .
والليوم صرت أكرهكم والكره سيل لا يجرف غير القضايان
اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية .

كنت أشق على ضعفك يا بني أمي والشفقة تكثر الضعفاء
وتتباهي عدد المتواين ولا تجدي الحياة شيئاً ، والليوم صرت
أرى ضعفك فترتعش نفسى اشترازاً وتنقبض ازدراه .

كنت أبكي على ذلک وانكسارک وكانت دموعي تجري
صافية كالبلور ، ولكنها لم تغسل ادرانک الكثيفة بل أزالت
الفساء عن عيني ، ولا بللت صدورک المتوجرة بل أذابت
الجزع في قلبي ، واليوم صرت أضحك من أوجاعک والضحک
رعود فاصلة تجني ، قبل العاصفة ولا تأتي بعدها .

ماذا تريدون مني يا بني أمي ؟

أتريدون أن اديكم أشباح وجوهکم في أحواض المياه الماءة ؟
تعالوا إذن وانظروا ما أقيع ملامحکم .

هلموا وتأملوا فقد جعل الحوف شعور رؤوسکم كالرماد ،
وعرك السهر عيونکم فأصبحت كالحفر المظلمة ، ولمست
الجبانة خودکم فبانت كأخرىق المتعددة ، وقبل الموت شفاهکم
فأمّست صفراة كأوراق الخريف .

ماذا تطلبون مني يا بني أمي – بل مازا تطلبون من الحياة
والحياة لم تعد تحسّبكم من أبنائهما ؟

أرواحکم تتنفس في مقابر الكهان والمشعوذين ، وأجسادکم
ترجف بين أنیاب الطغاة والسفاحین ، وبلادکم ترتعش تحت
أقدام الأعداء والفاتحین ، فماذا ترجون من وقوفك أمام وجه
الشمس ؟

سيوفکم مغلقة بالصدأ ، ورماحکم مكسورة الحراب ،
وترؤوسکم مغمورة بالتراب ، فلماذا انقرون في ساحة الحرب والقتال ؟

دينكم رباء ودنياكم ادعاء وآخر لكم هباء ، فلماذا تحبون
والموت راحة الأشقياء ؟

إنما الحياة عزم يرافق الشيبة ، وجد يلاحق الكهولة ،
وحكمة تتبع الشيخوخة ، أما أنت يا بني أمي فقد ولدت
شيوخاً عاجزين ثم صفرت روؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم
أطفالاً تقلبون على الأوحال وتترامون بالحجارة .

إنما الإنسانية نهر بلوري يسير متذبذباً متربغاً حاملاً أسرار
الجبال إلى أعماق البحر . أما أنت يا بني أمي فمستنقعات خبيثة
تدب الحشرات في أعماقها وتتلوي الأفاعي على جنباتها .

إنما النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم المشيء وتنمو
بالأنواء وتغير أوجه الآلهة — أما نفووسكم يا بني أمي فرماد تذرية
الرياح على الثلوج وتبدده العواصف في الأودية .

أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة .

أنا أحقركم لأنكم تحقرن نفوسكم .

أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون ! ! !

نَحْنُ وَأَنْتُمْ

نَحْنُ أَبْنَاءُ الْكَابَةِ وَأَنْتُمْ أَبْنَاءُ الْمَسَرَاتِ .

نَحْنُ أَبْنَاءُ الْكَابَةِ ، وَالْكَابَةُ ظُلْ إِلَهٌ لَا يُسْكِنُ فِي جُوَارِ
الْقُلُوبِ الشَّرِيرَةِ . نَحْنُ ذُوو النُّفُوسِ الْحَزِينَةِ ، وَالْحُزْنُ كَبِيرٌ
لَا تُسْعِهِ النُّفُوسُ الصَّغِيرَةِ . نَحْنُ نَبْكِي وَنَنْتَحِبُّ أَهْلَ الْضَّاحِكَوْنَ ،
وَمَنْ يَقْتَسِلُ بِدَمْوَعِهِ مَرَةً يَظْلِمُ نَقِيًّا إِلَى نَهَايَةِ الدَّهْرِ .

أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَا أَمَا نَحْنُ فَنَعْرِفُكُمْ . أَنْتُمْ سَائِرُونَ بِسُرْعَةِ
مَعْ تِيَارِ نَهْرِ الْحَيَاةِ فَلَا تَلْتَفِتُونَ نَحْوَنَا ، أَمَا نَحْنُ فَجَالُوسُونَ عَلَى
الشَّاطِئِ نَرَاكُمْ وَنَسْمِعُكُمْ . أَنْتُمْ لَا تَعْوِنُ صِرَاطَنَا لَأَنَّ ضَجِيجَ
الْأَيَامِ يَلْأَآذَانَكُمْ ، أَمَا نَحْنُ فَنَسْمِعُ أَغَانِيكُمْ لَأَنَّ هَمْسَ الْلَّيَالِيِّ قد
فَتَحَ مَسَاعِنَا . نَحْنُ نَرَاكُمْ لَأَنَّكُمْ وَاقِفُونَ فِي النُّورِ الْمُظْلَمِ ، أَمَا
أَنْتُمْ فَلَا تَرَوْنَا لَأَنَّنَا جَالُوسُونَ فِي الظُّلْمَةِ الْمُزِيَّةِ .

نَحْنُ أَبْنَاءُ الْكَابَةِ . نَحْنُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّعْرَاءُ وَالْمُوْسِيقِيُّونَ .

نَحْنُ نَحْوُكُمْ مِنْ خِبُوطٍ قَلُوبُنَا مَلَابِسُ الْأَلْمَةِ وَغَلَّابُجَهَاتُ صُدُورُنَا
حَفَنَاتُ الْمَلَائِكَةِ ، وَأَنْتُمْ — أَنْتُمْ أَبْنَاءُ غَفَلَاتِ الْمَسَرَاتِ وَيَقَظَاتِ
الْمَلَاهِيِّ — أَنْتُمْ تَضَعُونَ قَلُوبَكُمْ بَيْنَ أَيْدِيِّ الْخُلُوِّ لَأَنَّ أَصْبَاعَ
الْخُلُوِّ لِيَنَّ الْمَلَامِسَ وَتَرَاهُونَ بِقُرْبِ الْجَهَالَةِ لَأَنَّ بَيْتَ الْجَهَالَةِ

حالٍ من مرآة ترون فيها وجوهكم .

نحن نتنهد ومع تنهادنا يتضاعد همس الزهور وحيف
القصون وخرير السوافي ، أما أنت فتضحكون وقبحه ضحككم
متزوج بسحيق الجماجم وحرقة القيود وعوبل الهاوية .

نحن نبكي ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلاً يتساقط
الندى من أجناف الليل في كبد الصباح ، أما أنت فتبتسمون
ومن جوانب أفواهكم المبتسمة تهرق السخرية مثلاً يسيل سرمه
الأفعى على جرح المنسوع .

نحن نبكي لأننا نرى تعاسة الأرمدة وشقاء اليتيم ، وأنت
تضحكون لأنكم لا ترون غير لمعان الذهب . نحن نبكي لأننا
نسمع أنة الفقر وصراخ المظلوم ، وأنت تضحكون لأنكم
لا تسعون سوى رنة الاقداح .

نحن نبكي لأن أرواحنا منفصلة بالأجساد عن الله ، وأنت
تضحكون لأن أجسادكم تتلتصق مرثأة بالتراب .

°

نحن أبناء الكابة وأنت أبناء المسرات ، فهموا نضع ما في
كابتنا وأعمال مسراتكم أمام وجه الشمس .

أنت بنيتم الأهرام من جمام العبيد ؟ والأهرام جالة
الآن على الرمال تحدث الإيجيال عن خلودنا وفنائكم . ونحن
هدمنا الباستيل بسواعد الاحرار والباستيل لفظة ترددتها الأمم

فتباركنا وتلعنكم . أنت رفعت حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء وأقمت قصور نيموي فوق مدافن المؤسأء ، وها قد أصبحت بابل ونبنيوي نظير آثار أخلف الابل على رمال الصحراء . أما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً ، وضربنا النهاوند على الأوّارات فاستحضرت الأوّارات أرواح المعبين الحائنة في الفضاء ، ورسمنا مریم بالخطوط والالوان فعدت الخطوط كأفكار الالمة والالوان كعواطف الملائكة .

أنت تتبعون الملاهي وأظافر الملاهي مزقت الفَ الفِ من الشهداء في مسارح رومية وانطاكية . ونحن نلاحق السكينة وأصابع السكينة نسبجت الالياذة وسفر أيوب والثانية الكبرى . أنت تضاجعون الشهوات وعواصف الشهوات جرفت ألف موكب من أرواح النساء إلى هاوية العار والفسور . ونحن نعانق الوحدة وفي ظلال الوحدة نجسمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة داني . أنت تساررون المطامع وأسياف المطامع اجرت الف نهر من الدماء . ونحن نرافق الخيال وأيدي الخيال أنزلت المعرفة من دائرة النور الأعلى .

* * *

نحن أبناء الكآبة وأنت أبناء المسرات ، وبين كآبتنا وسروركم عقبات صعبة المسالك ضيقه المعابر لا تجتازها خيولكم

المطهمة ولا تسير عليها مر كباتكم الجميلة .
خن نشقق على صغارتم وأنتم تكرهون عظمتنا ، وبين
شقتنا وكرهم يقف الزمان محذراً بنا وبكم .
خن ندنو منكم كالاصدقاء وأنتم تهاجموننا كالاعداء ،
وبين الصدقة والعداوة هوّة عميقة مملوءة بالدموع والدماء .
خن نبني لكم القصور وأنتم تحفرون لنا القبور ، وبين جمال
القصر وظلمة القبر تسير الإنسانية بأقدام من حديد .
خن نفرش سبلكم بالورود وأنتم تغرون مضاجعنا بالأشواك ،
وبين أوراق الوردة وأشواكها تاتم الحقيقة نوماً عميقاً أبدية .
منذ البدء وأنتم تصارعون قوانا اللينة بضعفكم الخشن .
تغلبوننا ساعة فتضجون فرحين كالضفادع وتغلبكم دهرآ ونظل
صامتين كالجبابرة . قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله تسخرون به
وتتجدون عليه ، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من عن
صلبيه وسار كالجبابر يتغلب على الأجيال بالروح والحق ويلاً
الأرض ببعده وجماله .

قد سمعتم سقراط ورجتم بولس وقتلت غليلو وفتكتم بعلي
ابن أبي طالب وخنقتم مدحت باشا وهؤلاء يحيون الآن
كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبدية . أما أنتم فتعيشون في
ذاكرة الإنسانية كجثث فوق التراب لا تجد من يدفنها في
ظلمة النسيان والعدم .

نَحْنُ أَبْنَاءُ الْكَابَةِ وَالْكَابَةِ غَيْوَمٌ نَطَرَ الْعَالَمَ خَيْرًا وَمَعْرِفَةً
وَأَنْتُمْ أَبْنَاءُ الْمَسَرَاتِ وَمِمَّا تَعَالَتْ مَسَرَاتُكُمْ فَهِيَ كَأَعْمَدَةُ
الْدُخَانِ تَهْدِمُهَا الرِّيَاحُ وَتَبَدَّدُهَا الْعَانَصُ .

أبناء الآلة واحفاد القرود

ما أغرب الدهر وما أغربنا ! فقد تغير الدهر وغيرنا
وسار إلى الأمام وسيئرنا وأسفر عن وجهه فأذهلنا وفرّحنا .
كنا بالأمس نشكو الدهر ونخشاه فأصبحنا اليوم نحبه
ونهواه ، بل صرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم أسراره
وخفایاه .

بالأمس كنا ندب متهدرين كالأشباح المرتعشة بين أهوار
الليل ومخاوف النهار ، فأصبحنا اليوم نسير متهمسين نحو قمم
الجبال حيث تكمن العواصف الشديدة وتتولد البروق اللامعة
والرعود الفاحفة .

كنا بالأمس نأكل الخبز معجوناً بالدماء وشرب الماء
مزوجاً بالدموع ، فصرنا اليوم نتناول المن من أيدي
عرائس الصباح ونرشف الخمر معطرة بأنفاس الربيع .
بالأمس كنا ألعوبة في يد القضاء وكان القضاء جباراً ملائلاً
يتلوى بنا إلى اليمين وإلى اليسار ، أما اليوم فقد صحا القضاء
من سكره فأصبحنا نلاعبه فيلعب ، ونداعبه فيضحك ، ثم
نقرده وراءنا فينقاد .

كنا بالأمس نحرق البخور أمام الأصنام وننحر الضحايا
أمام الآلهة الغضوب ، أما اليوم فصرنا لا نحرق بخوراً إلا
لنفسنا ولا نقدم ذبيحة لغير ذاتنا لأن أعظم الآلهة وأبهام
جمالاً قد جعل هيكله في صدورنا .

بالأمس كنا نخضع للملوك ونلوبي رقابنا أمام السلاطين ،
أما اليوم فصرنا لا نتعيني إلا للحق ولا تتبع غير الجمال ولا
تطيع سوى المحبة .

كنا بالأمس نخشع بأبصارنا أمام الكهان وتهيب رؤية
العرافين ، أما اليوم وقد تغير الدهر وغيرتنا فأصبحنا
لا نخدق إلى غير وجه الشمس ولا نصفي إلا لنغمة البحر ولا
نهتر إلا مع الزوابع .

بالأمس كنا نهدم عروش نفوسنا لنبني منها قبوراً لأجدادنا ،
أما اليوم فقد تحولت نفوسنا مذابح مقدسة لا تدنو منها أشباح
القرون الغابرة ولا تلامسها أصابع الأموات البالية .
كنا فكرآ صامتاً مختبئاً في زوايا النسيان فأصبحنا صوتاً
ترتجف له أعماق الفضاء .

كنا شارة ضئيلة مكتنفة بالرماد فصرنا ناراً متقدة فوق
أكتاف الأودية .

وكم سهرنا الليلاني متوصدين التراب ملتحفين بالتلوج باكين

على ملفي أخعناء ورزق فقدناه . وكم صرفاً الأيام رابضين
كتناعج لا راعي لها نقضم أفكارنا وتلوك عواطفنا ونظل جائعين
ظامئين . وكم وقنا بين نهار زائل ومساء آت نائجين على شباب
ذابل مشتاقين إلى من لا نعرفه مستوحشين لأسباب نجهلها
محديين إلى فضاء خال مظلم ، مصغين إلى أنة السكون والعدم .
تلك أجيال مررت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن ، أما
اليوم وقد صحا الفضاء وصحونا ، فصرنا نفسي الليلالي البيضاء على
اسرة علوية ، مساهرين الخيال ، مسامرين الفكر ، معانقين
الميل ، تمايل حولنا شعلات النار فنقبض عليها بأصابع غير
مرتعشة وتصاعد حولنا أرواح الجن فنخاطبها بلغة غير ملتسبة ،
وغير " بنا أجواق الملائكة فنستهويها بشوق قلوبنا ونسكرها
بنعمة أرواحنا .

◦

كنا بالأمس وأصبحنا اليوم ، وهذه مشينة الآلة بأبنائه
الآلة ، فما هي ارادتكم يا أبناء القرود ؟
هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقت من شقوق
الأرض ؟ أم رفعتم أبصاركم نحو الأعلى منذ فتحت الشياطين
أبصاركم ؟ أم تلفظتم بكلمة من سفر الحق منذ قبلت أفواه
الأفاعي أنفواهكم ؟
أم اصفيتم هنية لأغنية الحياة منذ أغلق الموت آذانكم ؟

منذ سبعين الف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كاللشرات
في زوابيا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلوور
نافذني فوجدتكم تسيرون في الأزقة القدرة وأبالسة الحمول
تقودكم وقيود العبودية تتمسك باقدامكم وأجنحة الموت تصفع
فوق رؤوسكم . فأنتم اليوم كما كنتم بالأمس وستظلون غداً
وبعده مثلما رأيتكم في البدء .
كنا بالأمس فأصبحنا اليوم وهذا ناموس الآلهة بأبناء
الآلهة . فما هي ستة القرود بكم يا أبناء القرود ؟

بين ليل وصباح

اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك .

اسكت فالأنير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل أغانيك
وأناشيدك .

اسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب
الظلام لا تقف أمام أحلامك .

اسكت يا قلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يتربّق الصباح
صابرًا يلاقي الصباح قويًا . ومن جوى النور فالنور جواه .
اسكت يا قلبي واسمعني متكلماً .

في الحلم رأيت شحروراً يغرس فوق فوهه بركان ثائر .
ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج .

ورأيت حوريه عاريه ترقص بين القبور .

ورأيت طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك .

رأيت جميع هذه الصور في الحلم ولما استيقظت ونظرت
حولي رأيت البركان هائجاً ولكنني لم أسمع الشحرور مغداً
ولا رأيته مرفرفاً .

ورأيت الفضاء ينشر الثلوج على الحقول والأودية ساتراً

بـأكفانه البيضاء أجسام الزنابق الماء
ورأيت القبور صفوفاً منتصبة أمام سكينة الدهور وليس
يینها من يتأمل راقصاً ولا من يحيط مصلباً .
ورأيت راية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى
الريح .

في البقعة رأيت الحزن والأسى فـأين ذهبت أفراد الحلم
ومسراته ؟

أنت توارت بـهة المنام وكيف اضـ محلـت رسـومـه؟ وكـيف
تبـجلـدـ النـفـسـ حتىـ يـعـيـدـ النـوـمـ أـشـبـاحـ آـمـانـيـهاـ وـآـمـاهـاـ؟
اصـغـ يا قـلـبيـ وـاسـمعـنـيـ مـتـكلـماـ :

كـانـتـ نـفـسيـ بـالـأـمـنـ شـجـرـةـ قـوـيـةـ مـسـنـةـ تـنـدـ عـرـوـقـهاـ إـلـىـ
اعـقـ الأـرـضـ وـتـعـالـىـ غـصـونـهاـ نـحـوـ الـلـانـهـيـةـ .

ولـقـدـ أـزـهـرـتـ نـفـسيـ فـيـ الرـبـيعـ وـأـنـتـرـتـ فـيـ الصـيفـ وـلـمـ جاءـ
الـخـرـيفـ جـمـعـتـ أـثـارـهـ فـيـ أـطـبـاقـ منـ الفـضـةـ وـوـضـعـتـهاـ عـلـىـ قـارـعـةـ
الـطـرـيقـ ،ـ فـكـانـ الـعـابـرـونـ يـتـنـاـولـونـ مـنـهـاـ وـيـأـكـلـونـ ثـمـ يـسـيرـونـ
فـيـ سـبـيلـهـمـ .

وـلـمـ انـقـضـيـ الـخـرـيفـ وـنـحـوـتـ تـهـالـيـلـهـ إـلـىـ النـدـبـ وـالـلـوـلـةـ
نـظـرـتـ فـلـمـ أـرـ فيـ أـطـبـاقـ سـوـىـ ثـرـةـ وـاحـدـةـ أـبـقاـهـ النـاسـ لـيـ
فـتـنـاـولـهـ وـأـكـلـتـ فـأـلـفـيـتـهـ مـرـةـ كـالـعـلـقـ ،ـ حـامـضـ كـالـحـصـرـ .
فـقـلـتـ لـنـفـسـيـ :

وبحي لقد وضعت في أفواه الناس لعنة ، وفي أفواههم
عداء ، فماذا ترى فعلت يا نفسي بالحلوة التي امتصتها عروقك
من أحشاء الأرض ، وبالأريج الذي شربته قصابانك من نور
الشمس ؟

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسي القوية المسنة .
اقتلعتها بعروقها من التربة التي غلت فيها وترعرعت .
اقتلعتها من ماضيها وزرعت عنها ذكرى ألف ربيع وألف
خريف .

وعدت فزرعت شجرة نفسي في مكان آخر .
زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن . وكانت أشهر
بجانبها قائلًا : ان السهر يدلينا من النجوم . وكانت أسلوبها
بدمي ودموعي قائلًا : ان في الدم نكهة ، وفي الدموع
حلاؤه . ولما عاد الربيع أزهرت نفسي ثانية .
وفي الصيف أثرت نفسي . ولما جاء الخريف جمعت أنثارها
الناضجة بـأطباقي من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل فــ
الناس أفراداً وجماعات ولكن لم يجد أحد يده ليتناول منها .
فأخذت إذ ذاك ثرة وأكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ،
لذيدة كالكونثر ، طيبة كالحمراء البابلية ، عطرة كأنفاس
الياسمين . فصرخت قائلًا :
ان الناس لا يريدون البركة في أفواههم ولا الحق في

أجوافهم ، لأن البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء .
ثم عدت وجلست في ظل شجرة نفسي المنفردة في حقل
بعيد عن سبل الزمن .

◦

اسكت يا قلبي حتى الصباح .
اسكت ، فالفضاء قد أختمه رائحة الأشلاء فلن يتشرب
أنفاسك .

اصغر يا قلبي واسمعني متكلماً :
كانت بالأمس فكرتي سفينة تتقلب بين أمواج البحار
وتتنقل مع الأهواء من شاطئ إلى شاطئ .
ولقد كانت سفينة فكرتي خالية إلا من سبعة أكواب
طاقة بألوان مختلفة تشبه ألوان قوس قزح بنضارتها .
وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار فقلت سأعود
بسفينة فكرتي الفارغة إلى ميناء البلد الذي ولدت فيه .
ثم أخذت أطلي جوانب سفينتي بألوان صفراه كشمس
المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبـد السماء ،
وحراء كذوب الشفق ، وأرسم على شراعها ودقتها رسوماً
غريبة تجذب العين وتبيح البصيرة . ولما انتهيت من عملي وقد
ظهرت سفينة فكرتي كرؤيا نبي تطوف بين الالهاتين : البحر
والسماء ، دخلت ميناء بلدي فخرج الناس للاقتي بالتهليل

والتعظيم وأدخلوني المدينة ضاربين الدفوف ، نافخين الزمور .
 فعلوا ذلك لأن خارج سفينتي كان مزخرفاً بهجاً ولم يدخل
 أحد جوف سفينة فكريني .

ولم يسأل أحدٌ ماذا جلبت فيها من وراء البحار ..

ولم يدرِ أحد أني عدت بها فارغة إلى الميناء ..

عند ذلك قلت في سري : لقد ضلل الناس ، وبسبعة
أكواب من الألوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم .
وبعد عام ركبت سفينة فكريني وأبحرت ثانية .
مررتُ إلى جزر الشرق فجمعت منها المرّ واللبان والندر
والصندل وأدخلتها إلى سفينتي .

وإلى جزر الغرب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت
والزمرد وجميع الحجارة الكريمة .

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشي والبرفير .

وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزودة والسيوف
المشرفة والرماح السهرية وسائر أنواع الأسلحة .

ملأت سفينة فكريني بنفائس الأرض وغرائبها ، وعدت
إلى ميناء بلدي قائلاً :

سوف يجعلني قومي ولكن عن جداره . وسيدخلوني
المدينة منشدين مزمرين ولكن عن استحقاق .

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد ملacia ، ودخلت

شوارع بلدي فلم يلتفت إلي أحد .

ووقفت في ساحتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الأرض وطراحتها فكانوا ينظرون إلي والضحك مليء أفواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحولون عني .

فعدت إلى الميناء كثيراً مستغرباً . ولكنني ما لمحت سفينتي حتى فطنت لأمرٍ كنت مشغولاً عنه بمنازع أسفاري ورغائبها .
فهتفت قائلاً :

إن أمواج البحار قد حلت الطلاع عن جوانب سفينتي
فبانت كهيكل من عظام ، وعفت الأرياح والأنواع وحرارة
الشمس الرسم عن أمرعتها فظهرت كأثواب رمادية بالية .
لقد جمعت طرائف الأرض ونفاسها في ثابوت يعوم على
وجه الماء وعدت إلى قومي فتبذوني لأن عيونهم لا ترى سوى
المظاهر الخارجية .

في تلك الساعة تركت سفينية فكري وذهبت إلى مدينة
الأموات وجلست بين القبور المكلاة مفكراً بأسرارها .
اسكت يا قلبي حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الموجاء
تسخر بهمس أعماقك ، وكهوف الوادي لن ترجع بصداتها
رنات أو تارك .

اسكت يا قلبي حتى الصباح . فمن يتربّص الصباح متجلداً
يعانقه الصباح مشتاقاً .

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم إن كنت تستطيع الكلام .
هذا موكب الصباح يا قلبي . فهل أبقى سكوت الليل
في أعماقك أغنية تلاقي بها الصباح ؟

هذا أسراب الحمام والشخارير تتغایر متنقلة في أطراف
الوادي . فهل أبقى هول الليل في جناحيك صلابة لتطير معها ؟
هذا الرعيان يسيرون أمام قطعائهم من الحظائر والمرابض .
فهل أبقيت لك أشباح الليل عزماً لتسيير وراءها إلى المروج
الحضراء ؟

هذا الفتىان والصبايا يمشون الموينا نحو الكروم . فهلا
نهضت ومشيت معهم ؟

قم يا قلبي . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى . ومخاوف
الليل قد اضمحلت مع أحلامه السوداء .

قم يا قلبي وارفع صوتك متربغاً . فمن لم يشارك الصبح
بأغانيه كان من أبناء الظلم .

المخدرات والماياضع

هو متطرف ببادئه حتى الجنون .

هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة .

لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء
جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مبانی
الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيناً وسكانه شياطين .
قهراً عما في أسلوبه الكتائبي من الجمال فهو من أعداء
الإنسانية .

هو فوضوي كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل
المبارك بأن يبنزوا تعاليمه ويحرقوها مؤلفاته لثلا يعلق منها شيء
على نفوسهم .
قد قرأنا له الأجنحة المكسرة فوجدناها السم في الدسم .

هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيرون ، فأنا متطرف
حتى الجنون ، أميل إلى المدم ميل إلى البناء ، وفي قلبي
كره لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه ، ولو كان بإمكانني
استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . أما

قول بعضهم ان كتابي سم في دسم فكلام يبيّن الحقيقة من وراء نقاب كثيف - فالحقيقة العارية هي اني لا أمزج السم بالدسم بل أسكبه صرفاً . غير اني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة .

اما الذين يعتذرون عن امام نفوسهم قائلين : هو خيالي يسبح مرفقاً بين الغيوم ؟ فهم الذين يهددون الى لمعان تلك الكؤوس الشفافة من صرفي عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه سماً لأن معدهم الضعيفة لا تحتمله .

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشتها افضل من الخيانة بنعومتها؟ ان الوقاحة تظهر نفسها أما الخيانة فترتدي ملابس فصلت لغيرها .

°

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي تطوف مرفقة في الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع منها أفراداً من العسل .

إن الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيعون سواه مأكلًا . وقد أفرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم إلى عسل تسيل أمام النار ولا تجمد إلا إذا وضعت على الثلج .

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلطنتهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيم

البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذايح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففي أيامنا هذه مداحون يضارعون المتني ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنثون أكثر طلاوة من صفي الدين الحلي .

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آباءهم وجدودهم ، متعمقاً بدرس آثارهم وعواوينهم وتقاليدهم صارفاً أيامه وليلاته بين مطولات لغاتهم واستعفافات ألفاظهم ومباين معانيهم وبيانهم وبديعهم .

ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ما قاله بيديبا وابن رشد وأفرام السرياني ويوحنا الدمشقي وأن لا يتبعده بكتابته حدود الوعظ البليد والارشاد السقيم وما يحيىء بينهما من الحكم والآيات التي إذا ما نتني عليها الفرد كانت حياته كالأشتاب الضئيلة التي تنبت في الظل ونفسه كلام الفاتر المزوج بقليل من الأفيون .

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر وينيلون إلى الأمور السلبية المسلية المفكرة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام المادئة .

٦

إنما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الاوبئة حتى

تعود السقم وألف الألم وأصبح ينظر إلى أصحابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كغلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة فمن كان خالياً منها عَدْ ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية .

وأطباء الشرق كثيرون يلزمون مضجعه ويتأمرون في شأنه ولكنهم لا يداوونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها .

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الأنواع متعددة الأشكال متباعدة الألوان . وقد تولد بعضها عن بعض مثلما تنسخت الأمراض والعاهات بعضها عن بعض . وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مدرراً جديداً .

وأما الأسباب التي آلت إلى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل إلى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجحانة الأطباء وخوفهم من تهيج الألم الذي تحدثه الأدوية الناجعة . وإليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتبعذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية : ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتبعذان ، ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلا الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتتفقوا على إيجاد السلام بين

الزوجين ، فيأتون بالمرأة ويستهون عواطفها بالمواعظ الملققة التي تحجلها ولا تقنعها ، ثم يستدعون الرجل ويفبرون رأسه بالأقوال والأمثال المزدكشة التي تلعن أفكاره ولا تغيرها . وهكذا يتم الصلح - الصلح الواقعي - بين الزوجين المتنافرين بالروح فيعودان قهراً عن إرادتهما إلى السكينة تحت سقف واحد حتى « يبوخ » الطلاء ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الأهل والأنسباء فيعود الرجل إلى إظهار نوره ومقته والمرأة إلى إزالة النقاب عن تعاستها . غير أن الذين أوجدوا الصلح في المرة الأولى يوجدونه ثانية ، ومن يرتشف جرعة من المخدرات لا يأنى شرب كأس دهاق .

يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون جمعية إصلاحية ترمي إلى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة ويكتبون بحماسة وينشرون الملاوح والبرامج ويعثرون الوهود والممثلين ، ولكن لا يمر شهر أو شهراً حتى نسمع بأن الحكومة قد سجنـت رئيس الجمعية او عهدـتـ إـلـيـهـ بوظيفة . أما الجمعية الإصلاحية فلا نعود نسمع عنها شيئاً لأن أفرادها قد تجرعوا قليلاً من المخدرات المعهودة وعادوا إلى السكينة والاستسلام .

تتمرد طائفة على رئيس دينها لأمور أولية فتنتقد شخصه وتذكر أعماله وتتبّعـهـ مـاـتـيهـ ثم تهدـهـ باعتناقـهاـ مـذـهـباـ آخرـ

أقرب إلى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات. ولكن لا يبر
ردع من الزمن حتى نسمع بأن عقلاه البلاد قد أزوالوا الخلاف
بين الراعي ورعيته وأرجعوا بفضل المخدرات السحرية الممية
إلى شخص الرئيس والطاعة العميماء إلى نفوس المرؤوسين
العورفين !

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي فيقول له جاره :
اسكت فالعين التي تعاند السهم تتفقا .

يشك القروي بتقى الرهبان وإخلاصهم فيقول له زميله :
اصمت فقد جاء في الكتاب : اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا
أفعالهم .

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكتويفيين
اللغوية فيقول له أستاذه : إن الكسالي والمتواين يختلفون
لنفوسهم أعداراً أقبح من الذنب .

تنتعل الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها :
ليست الابنة أفضل من أمها فالطريق التي سلكتها سلكنها
أنت أيضاً .

يسأل الشاب مستفسراً معافي الزوائد الدينية فيقول له
الكافن : من لا ينظر بعين الإيان لا يرى في هذا العالم سوى
الضباب والدخان .

وهكذا تمر الأيام باز اليسالي ، والشرقي مضطجع على

فراشه الناعم ، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ، ثم يعود ويهجع جيلاً بحكم المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه . فإذا ما قام رجل وصرخ بالثائرين وملاً منا لهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الابدي ثم يقولون متثنين : ما أخشنـه فـتـي لا يـنـام ولا يـدـعـ النـاسـ يـنـامـونـ ! ثم يغمضون عيونهم وجمسون في آذان أرواحهم : هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدى مباني الأجيال ويرشق الإنسانية بالسهام السامة .

قد سألت نفسي مرات ما إذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكّنات ، فكانت نفسي تخيفني بكلمات مبهمة ملتبسة ، ولكنني لما سمعت الناس يجدرون على اسمي ويتأففون من مبادئي أيقنت بحقيقة يقطني وعلمت أنني لست من المستسلّمين إلى الاحلام اللذيدة والخيالات المستحبة . بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك والازهار حفوقة بالذئاب الحافظة والبلابل المترفة .

ولو كانت اليقظة فضيلة لتفني الاحتشام عن ادعائنا ، ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير أمامهم فيتبعونها قسر إرادتهم بمحظيين بأسلاكها الخفية محدقين إلى معانٍها المبيبة .

وعندي ان الاحتشام في اظهار الحقائق الشخصية هو نوع
من الرياء الايض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب .

غداً يقرأ الأدباء المفكرون ما تقدم فيقولون متضجرون :
هو متطرف ينظر إلى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير
الظلم ، وطالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متاؤها
حالنا .

فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول : أنا أندب الشرق لأن
الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق .
أنا أبكي على الشرقيين لأن الضحك على الامراض جهل
مركب .

أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة
العمياء غباء عمياء .

أنا متطرف لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحق
ويبيقي نصفه الآخر محظوباً وراء خوفه من ظنون الناس
وتقوّلاتهم .

أنا أرى الجففة المنتنة فتشمئز نفسي وتتضطرب أحشائي
ولا استطيع أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب
وفي شمالي قطعة من الحلوي .

فلوان كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ويحمل

اشتزازي إلى الانعطاف وتطرفي إلى الاعتدال فعليه أن يربني
بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل
بما يعلم وزوجاً ينظر إلى أمر أنه بالعين التي يرى بها نفسه .
إن كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصاً ويسمعني مطلاً
ومزمراً فعليه أن يدعوني إلى بيت العريس لا أن يوقفني بين
المقابر .

السرجين المفضض

١

سلمان افendi :

هو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن اللباس ، رشيق القامة ، ذو شاربين معقوفين ، وحذاء لامع ، يلبس الأجربة الحريرية ، ويدخن الفائف الشينة ، ويحمل بيده الناعمة عصا جميلة ذات قبضة ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويلكل في المطاعم الكبيرة حيث يلتئم سراة القوم وأشرافهم ، ويدهب إلى المنتزهات المشهورة في مركبة فاخرة يجبرها فرسان كريمان .

ولم يرث سلمان افendi المال عن أبيه لأن أبوه رحمة الله كان رجلاً فقيراً مسكيناً ، ولا جد متاجرًا فاكتسب ثروة لأنه كلان متوان يكره العمل ويظنه محظياً بقامه ، وقد سمعناه مرأة يقول : إن جسدي وأخلاقي لا تساعدني على الشغل ، فالشغل قد وجد لذوي الأخلاق الباردة والأجساد الحشنة .

إذاً كيف حصل سليمان أفندي على المال ، وأيُّ ساحر
حول التراب في كفيه إلى فضة وذهب ؟
ذاك سرٌّ من أسرار السرجين المفضض أعلنه لنا عزرا نيل
ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ خمسة أعوام تزوج سليمان أفندي من السيدة فهيمة
أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذي اشتهر بين أترابه
بالجلد والمواظبة والأمانة . وقد كانت السيدة فهيمة حينئذ
في الخامسة والأربعين من عمرها وفي السادسة عشرة من سنِي
عواطفها وميلوها وهي الآن تصبغ شعرها وتكمِّل عينيها
وتطلِّي وجهها بالألوان والمساحيق ولكنها لا ترى سليمان
أفندي قبل نصف الليل وقليماً حظيت منه بغير النظرات الحادة
واللألفاظ القاسية ، فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التي جمعها
زوجها الأول بكده وعرق جبينه .

٢

اديب أفندي :

فقي في السابعة والعشرين من عمره ، ذو أنف كبير وعينين
صغريتين ووجه قذر ويدين ملطختين بالجبر وأظافر حشوة

بالأوساخ . أما ملابسه فممزقة الأطراف وعلى حواشيه بقع من الزيت والدهن والقهوة . وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز وال الحاجة بل من مولدات اهماله واستغلال باله بالأمور المعنوية والسائل العلوية والمواضيع الالهية . . . وقد سمعناه يقول مستشهدآ بأمين الجندى : ان القرىحة لا تصرف إلى شيئاً . أي أن الأديب لا يستطيع ان يميل إلى صناعة القلم وإلى النظافة في وقت واحد .

أديب أفندي يتكلم كثيراً ويتكلّم دائمًا ، فهو منصرف عن كل شيء إلى الكلام ، وقد علمنا أنه صرف عامرين في إحدى مدارس بيروت ودرس علم البدىع على أحد الأساتذة المشهورين ونظم الشعر وأنشأ الرسائل والمقالات ولكنه لآن لم ينشر منها شيئاً لأنسباب كثيرة أهمها انحطاط الصحافة العربية وغياب القراء !

وقد انصرف أديب أفندي في الآونة الأخيرة إلى خفايا الفلسفة القديمة والحديثة ، فهو معجب بسفرقات وينتشه في وقت واحد ! وميل إلى أقوال القديس اغسطينس ميله إلى كتابات فولتر وجان جاك روسو . وقد لقيناه مرة في عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير ! ورأيناها مرة أخرى سائراً في جنازة وجيه والشيعة يمشون إلى جانبه برؤوس

منخفضة وملامح مكتتبة وهو يتكلم بفصاحته المعتادة عن
خمريات أبي نواس وغزليات ابن الفارض !
لماذا ياترى يعيش أديب أفندي وما الغرض من صرفه
الأيام والليالي بين الكتب القديمة والأوراق البالية ؟ ولماذا
لا يقتني حماراً ويصير في عداد المكارين الأقوباء النافعين ؟
ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أعلنه لنا بعزل بول
ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ ثلاث سنوات نظم أديب أفندي قصيدة في مدح
سيادة المطران يوحنا شمعون وأنشدها أمامه في دار حبيب بك
سلوان ، ولما فرغ من تنفيتها دعاه سيادة المطران وضع يده
على كتفه وقال له مبتسمًا : عافاك الله يا ابني ، فما أبلغك
شاعرًا وما أذكاك أديباً ! فانا أفتخر بأمثالك ولا أستك
بأنك ستكون من رجال الشرق الكبير .
ومن تلك الساعة إلى الآن ووالد أديب أفندي وعمه
وخلال ينظرون إليه معجبيه ويتحدثون عنه مفاخرن قائلين :
— أو لم يقل المطران يوحنا شمعون انه سيكون من رجال
الشرق العظام ?

فريد بك دعييس :

هو رجل يناظر الأربعين ، طويل القامة ، صغير الرأس ،
كبير الفم ، ضيق الجبهة أصلعها ، يشيء مثاقلاً بصدر منتزع
وعنق مستطيل وخطواه وزن خاص يضارع بخترة جمل يقلّ
هودجاً . وعندما يتكلّم بصوته الجحوري وأسلوبه الفخم تخاله
ان لم تكن تعرفه أحد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون
الناس المهتمين بتكييف أمور العباد .

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس في صدور المحافظ
وتعداد ما في أسرته المجيدة ومزايا محنته الكريمة . وهو مغرم
بسرد أخبار الرجال العظام وأعمال الأبطال الكبار كنابليون
وعنترة العبسي ، وله ولع خاص بالأسلحة النفيضة ولديه منها
مجموعة حسنة معلقة بترتيب على جدران منزله ولكنه لا يحسن
استعمالها !

ومن أقواله المأثورة : إن الله خلق الناس طبقات متفاوتة
منها للرئاسة ومنها للخدمة . ومنها : إما الشعب حمار حرون
لا يسير إلا إذا علقت ظهره . ومنها : القلم للضعفاء أما السيف

فالأشداء ...

وما هي الأسباب التي تجعل فريد بك يتمجد متغطرساً
ويتجبر متغروفاً ويزهو مختالاً متبذلاً متبعجاً ؟
ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أبانه لنا سلطانيل
ونحن بدورنا نبيه لكم :

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بينما كان الأمير
 بشير الشهابي سائراً بكوكة من رجاله بين أودية لبنان مرّ
 بقرب القرية التي كان يقطنها منصور دعيس جد فريد بك
 دعيس . ولما كان النهار حاراً والشمس تريش الأرض بسهامها
 الدقيقة فتكاد تحرقها ترجل الأمير قائلًا لرجاله : تعالوا نرتاح
 في ظلال تلك السنديانة .

وعلم منصور دعيس بذلك فنادي جيرانه الفلاحين وأخبرهم
 بوجود الأمير الكبير على مقربة من قريتهم ، فساروا وراءه
 نحو تلك السنديانة حاملين أطباق التين والعنب وجرار اللبن
 والتمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدم منصور دعيس وقبل
 أطراف أذيال الأمير ثم نحر كبشًا أمامه وهتف قائلًا : هذا
 من خير أمرنا وولي نعمتنا .

فسر الأمير بأريحيته وخلع عليه قائلًا : ستكون منذ الآن
 وصاعداً شيئاً على هذه القرية مشولاً بنظري الخصوصي . وقد
 أغبت سكان قريتك من الأموال الأميرية في هذه السنة .

وفي تلك الليلة بعد ان تابع الأمير مسيره اجتمع في
بيت «الشيخ» منصور دعييس جميع سكان القرية ونادوا به
رئيساً مطاعاً في النساء والضراء - رحمهم الله جميعاً .

°

وللسرجين المفضض أمرار لا عداد لها تعلنها لنا الشياطين
والأبالسة في كل يوم وليلة وسوف نظيرها لكم قبل أن
يسيرنا الدهر إلى ما وراء الشفق الأزرق . أما الآكن وقد
انتصف الليل وملت أجفاننا السهر فاسمحوا لنا أن ننام
لعل عروس الأحلام تحمل روحنا إلى عالم أنظف من
هذا العالم .

رؤيا

عندما جنَّ الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض
توكت مضجعي وسرت نحو البحر فائلاً في نفسي : البحر لا
ينام . وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام .

بلغت الشاطئِ وكان الضباب قد انحدر من أعلى الجبال
وغير تلك التواحي مثلاً يوشي النقاب الرمادي وجه الصبية
الحسناً . فوقفت محدقاً إلى جيوش الأمواج مصفيأً إلى تهاليلها ،
مفكرةً بالقوى السرمدية الكامنة وراءها ، تلك القوى التي
تركض مع العواصف وتثور مع البراكين وتبتسم بثبور
الورود وتترنم مع الجداول .

وبعد هنيئة التفت فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر
قريب وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم ، فمشيت نحوهم
بيطء كأن في كيانهم جاذباً يستهلي قسر ارادتي .
ولما صرت على بعد بعض خطوات منهم وقفت شائحاً بهم
كأن في المكان سحراً أجمد ما بي من العزم وأيقظ ما في
روحي من الخيال .
في تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة ، وبصوت خلته

آتياً من أعماق البحر قال :

— الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا أغار. والحب
بغير الجمال كأزهار بغير عطر ، وأغار بغير بذور ... الحياة
والحب والجمال — ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلة مطلقة
لا تقبل التغيير ولا الانفصال . قال هذا وجلس في مكانه .
ثم انتصب الشبح الثاني ، وبصوت يائئل هدير مياه غزيرة
قال :

— الحياة بغير ترد كالفصول بغير ربيع . والتمرد بغير
حق كالربيع في الصحراء القاحلة الجرداء ... الحياة والتمرد
والحق — ثلاثة أقانيم في ذات واحدة لا تقبل الانفصال
ولا التغيير .

ثم انتصب الشبح الثالث ، وبصوت كقصص الرعد قال :
— الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح . والحرية بغير
الفكر كالروح المشوّشة ... الحياة والحرية والفكر — ثلاثة
أقانيم في ذات واحدة أزلية لا تزول ولا تض محل .

ثم وقف الأشباح الثلاثة ، وبأصوات هائلة قالوا معاً :
— الحب وما يولده . والتمرد وما يوجده . والحرية وما
تنبيه — ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم
العاقل .

وحدث إذ ذاك سكوت مفعم بجحيف أجنبية غير منظورة

وارتعاش أجسام أثيرية . فاغمضت عيني " مصغياً إلى صدى
الاقوال التي سمعتها . ولما فتحتها ونظرت ثانية لم أرَ غير
البحر متسلحاً ببدار الضباب ، فاقتربت من الصخرة حيث
كان الأشباح الثلاثة جالسين فلم أرَ إلا عموداً من البخور
متصاعداً نحو السماء .

في ظلام الليل

كتبت أيام الماجدة

في ظلام الليل ينادي بعضاً بعضاً .

في ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخیال الموت منتصب في
وسطنا . وأجنحته السوداء تخيم علينا . ويده المأثنة تحرف إلى
الهاوية أرواحنا . أما عيناه الملتهتان فمجدقتان إلى الشفق
البعيد .

في ظلام الليل يسیر الموت ونحن نسير خلفه خائفين منتعجين
وليس بيننا من يستطيع الوقوف وليس فينا من له أمل
بالوقوف .

في ظلام الليل يسیر الموت ونحن نتبعه ، وكما التفت
الموت إلى الوراء يسقط هنا ألف إلى جانبي الطريق ومن يسقط
يرقد ولا يستيقظ ومن لا يسقط يسیر قسر ارادته عالماً بأنه
سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا . أما الموت فيظل سائراً محدقاً
إلى الشفق البعيد .

في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والاب أبناءه والأم أطفالها

وكلنا جائعون لاغبون متضورون . أما الموت فلا يجوع ولا يعطش ، فهو يتهم أرواحنا وأجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشع ولا يرثي .

في المزيع الأول من الليل ينادي الطفل أمه قائلاً : يا أماه أنا جائع . فتعجبه الأم قائلة : اصبر قليلاً يا ولداه . وفي المزيع الثاني ينادي الطفل أمه ثانية قائلاً : يا أماه أنا جائع فأعطيوني خبزاً . فتعجبه : ليس لدى " خبزاً يا ولداه . وفي المزيع الثالث يمر الموت بالأم وطفلها ويصفعهما بمناجمه فيرقدان على جانب الطريق ، أما الموت فيظل سائراً محدفاً إلى الشفق البعيد .

في الصباح يذهب الرجل إلى الم Howell طالباً القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة .

وعند الظهيرة يعود إلى زوجته وصغاره خائراً القوى فارغ اليدين .

وعندما يجيء المساء يمر الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين فيضحك ثم يسرع محدفاً إلى الشفق البعيد . في الصباح يترك الفلاح كوهه ويدذهب إلى المدينة وفي جيبيه حل أمه وأختيه ليتนา بها الدقيق . وعند العصر يعود إلى قريته بلا قوت ولا حل فيجد أمه وابنته راقدات أما عيونهن فلم تزل شاخصة إلى اللاشي ، فيرفع ذراعيه نحو السماء

ثم يهبط إلى الحضيض كطارئ رماه الصياد . وفي المساء ير الموت
بقرب الفلاح وأمه وأختيه فيجدهم راقدين فيبيتس ثم يسير محدفاً
إلى الشفق البعيد .

في ظلام الليل ، وليس لظلام الليل نهاية ، يناديكم إليها
السائلون في نور النهار فهل ألم سامعون صراخنا ؟
قد بعثنا إليكم أرواح أمواتنا رسلاً فهل وعيتم ما قاله الرسل ؟
وحملتنا الهواء الشرقي من أنفاسنا حملًا فهل بلغ الهواء
شواظكم البعيدة وألقى بين أيديكم أحماله الثقيلة ؟ هل عرفتم
ما بنا فقتم تسعون لإنقاذنا أم وجدتم نفوسكم في سلامة
وطمأنينة فقلتم : مادا عسى يستطيع الجالسون في النور أن
يفعلوا لأبناء الظلام ؟ فلندع الموتى يدفنون أمواتهم ولتكن
مشيئه الله .

أي ، لتكن مشيئه الله .
ولكن هلا تستطيعون أن ترفعوا نفوسكم إلى ما فوق
نفوسكم ليصيركم الله مشيئه له وعوناً لنا ؟
في ظلام الليل ينادي بعضاً .

في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأم ابنها والزوج زوجته
والمحب حبيبته . وعندما تتجاوز أصواتنا وتعالي إلى كبد
القضاء يقف الموت هنيهة ضاحكاً منا مستهزئاً بنا ثم يسير
محدفاً إلى الشفق البعيد .

الاضراس المسوسة

كان في فمي ضرس مسوس ، وكان يختال على تعذيبه
فيسكن متربصاً ساعات النهار ويستيقظ مضطرباً في هدوء
الليل عندما يكون أطباء الأسنان نائين والصيدلية مقفلة .

في يوم وقد نفد صبري ذهبت إلى أحد الأطباء وقلت
له : الا فائزه ضرساً خيناً يحرمني لذة الرقاد ويحول سكينة
ليالي إلى الأنين والضجيج .

فهزَ الطبيب رأسه قائلًا : من الغباء أن تستأصل
الضرس إذا كان بإمكاننا تطبيبه .

ثم أخذ يحفر جوانب الضرس وينظف زواياه ويتنفس
بتطهيره من العلة . ولما وثق بأنه صار خالياً من السوس حشا
ثقوبه بالذهب الحالص ثم قال مفاخرًا : لقد أصبح ضرسك
العليل أشد وأصلب من أضراسك الصحيحة . فصدق كلامه
وملأت حفنته بالدنانير وذهبت فرحاً .

ولكن لم يمر الأسبوع حتى عاد الضرس المشؤوم إلى تعذيبه
وإبدال أنقام روحه بمشربة الاحتضار ووعيل المهاوية .
فذهبت إلى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم :

ألا فاخلعه ضرساً مذهباً شريعاً ، ولا تعترض « فمن يأكل
العصي لا كمن يعدها » .

فتزع الطيب الفرس وكانت ساعة هائلة بأوجاعها ولكنها
كانت ساعة مباركة .

وقد قال لي الطيب بعد ان استأصل الفرس وتفحصه
جيداً : لقد فعلت حسناً ، فالعملة قد تحكمت بأصول ضرسك
هذا حتى لم يبق رجاء بشفائه .

وقد نمت مرتاحاً في تلك الليلة ، ولم أزل في راحة ، والحمد
لله الخ لخلع والاستئصال .

في فم الجامعة البشرية اضراس مسومة وقد نخرتها العلة
حتى بلغت عظم الفك ، غير أن الجامعة البشرية لا تستأصلها
لتزاح من أوجاعها بل تكتفي بتMRIضها وتنظيف خارجها
وملء ثقوبها بالذهب اللامع .

وما أكثر الأطباء الذين يداون أضراس الإنسانية بالطلاء
الجلييل والمواد البراقة . وما أكثر المرضى الذين يستسلمون
إلى مشيئة أولئك الأطباء المصلاحين فيتوجعون ويسمون ثم
يغدون بعلتهم مخدوعين .

غير أن الأمة التي تعتل ثم توت لا تبعث ثانية لظهور للملا
أسباب الأمراض المعنوية وماهية الأدواء الاجتماعية التي تؤول

بـالأمـم إلـى الانـقـاض والـعـدـم .

وـفـي فـم الـأـمـمـ السـورـيـة أـضـرـاسـ بـالـيـة سـوـدـاء قـذـرـة ذات رـائـحة كـرـحـة وـقـد حـاـول أـطـبـاؤـنـا تـطـهـيرـها وـحـشـوـهـا بـالـمـيـاء وـإـلـبـاسـ خـارـجـهـا رـفـوقـ الـذـهـبـ وـلـكـنـها لـا تـشـفـى وـلـنـ تـشـفـى بـغـيـرـ الـاستـصـالـ . وـالـأـمـمـ الـتـي تـكـوـنـ أـضـرـاسـهـا مـعـتـلـةـ تـكـوـنـ مـعـدـتـهـا ضـعـيـفـةـ ، وـكـمـ أـمـمـ ذـهـبـتـ شـهـيدـةـ عـسـرـ الـفـضـمـ .

وـمـنـ سـاءـ أـنـ يـرـى أـضـرـاسـ سـورـيـاـ المـوـسـوـةـ فـلـيـذـهـبـ إـلـىـ المـدـرـسـةـ حـيـثـ يـسـتـظـهـرـ رـجـالـ الـفـدـ ماـقـالـهـ الـأـخـفـ نـقـلـاـ عـنـ سـيـبـوـيـهـ وـسـيـبـوـيـهـ عـنـ سـاقـقـ الـأـطـعـانـ .

أـوـ فـلـيـذـهـبـ إـلـىـ الـمـحـكـمـةـ حـيـثـ يـتـلـاعـبـ الـذـكـاءـ الـبـهـلوـانـيـ بالـقـضـاـيـاـ الـشـرـعـيـةـ مـثـلـاـ تـلـعـبـ الـقـطـةـ بـصـيـدـتـهاـ .

أـوـ فـلـيـذـهـبـ إـلـىـ مـنـازـلـ الـمـتـرـينـ حـيـثـ التـصـنـعـ وـالـكـذـبـ وـالـرـيـاءـ .

أـوـ فـلـيـذـهـبـ إـلـىـ بـيـوتـ الـفـقـرـاءـ حـيـثـ الـحـوـفـ وـالـجـبـانـةـ وـالـجـهـالـةـ .

وـبـعـدـ ذـلـكـ فـلـيـذـهـبـ إـلـىـ أـطـبـاءـ الـأـسـنـانـ ذـوـيـ الـأـصـابـعـ النـاعـمـةـ وـالـآـلـاتـ الـدـقـيقـةـ وـالـمـسـاحـيقـ الـمـخـدـرـةـ الـذـينـ يـصـرـفـونـ الـأـيـامـ بـلـءـ ثـقـوبـ الـأـضـرـاسـ الـمـوـسـوـةـ وـتـطـهـيرـ زـوـاـيـاـهـاـ الـمـعـتـلـةـ ، وـإـذـاـ أـرـادـ حـادـتـهـمـ وـالـأـنـتـفـاعـ بـعـوـاهـبـهـمـ فـهـمـ هـمـ النـبـاءـ الـفـصـحـاءـ

البلغاء الذين يزلفون الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون
في النوادي والساحات ، ففي حديثهم نغمة أسمى من أناشيد
حجر الريح وأنبل من أغاني الضفادع في ليالي قوز .

ولكن إذا قال لهم أن الأمة السورية تفرض قوت الحياة
بأضراس مسوسة وان كل لقمة تلو كها تترتج بلعاب مسمم
وأنه قد تنتج عن ذلك مرض في امعائنا ، إذا قال هذا يحبونه
بقولهم : نعم نحن الآن منصرفون إلى درس أحدث المساحيق
وأجد المخدرات .

وإذا قال لهم : ما قولكم بالاستئصال ؟ يضحكون منه
لأنه لم يدرس طب الأسنان الشريف .

وإذا أعاد السؤال ثانية يبتعدون عنه متضجرين فائلين في
نقوسهم : ما أكثر الخيالين في هذا العالم وما أوهى أحلامهم !

مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام المدينة فشعشت الانوار في القصور
والمتازل وخرج الناس إلى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى
وجوههم سيماء البشر والاستكفاء ومن بين دقائق ها لهم تنبئ
رائحة المأكل والحمور ...

أما أنا فسررت وحيداً منفرداً مبتعداً عن الزحام والضجيج
أفكر بصاحب العيد .
أفكر بنايحة الأجيال الذي ولد فقيراً وعاش متجرداً ومات
مصلوباً ...

أفكر بالشعلة النارية التي أوقدها الروح الكلية في قرية
حقيرة بسوريا فطافت مرفرفة فوق رؤوس العصور مختلفة
مدينة بعد مدينة ...

ولما بلغت الحديقة العمومية جلست على مقعد خشبي أنظر
من خلال أغصان الأشجار العارية نحو الشوارع المزدحمة وأسمع
عن بعد أناشيد المعبددين السائرين في موكب اللهو والخلو ...
وبعد ساعة مفعمة بالأفكار والأحلام التفتُ وإذا برجل
جالس بقربى على المقعد وفي يده عصا يرسم بطرفها خطوطاً

ملتبسة على التراب ... فقلت في نفسي : هو مستوحٍ مثلي .
ثم تفرست فيه متبرّأ شكله فألفيته رغم أثوابه القدية وشعره
المترسل المشوش ذا هيبة ووقار ... وكأنه قد شعر بأنني
أنظر إليه متفحصاً شكله وملامحه فالتفت نحوه وقال بصوت
عميق هادئ : مساء الخير . فأرجعت التحية قائلاً : أسعد
الله مساءك .

ثم عاد يرسم الخطوط بعказه على أديم الأرض . وبعد
هنيهة وقد أتعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلاً : هل أنت
غريب في هذه المدينة ؟

فأجاب : أنا غريب في هذه المدينة وأنا غريب في كل
مدينة أخرى .

قلت : إن الغريب في مثل هذه المواسم يتنامي ما في
الغرابة من الضيم والوحشة لما يجده في الناس من الأنس
والانعطاف .

فأجاب : أنا غريب في مثل هذه الأيام أكثر مني في غيرها .
قال هذا ونظر إلى الفضاء الرمادي فاتسعت عيناه وارتعشت
شفتاه كأنه رأى على صفيحة الفضاء رسوم وطن بعيد ...

قلت : إن القوم في هذه المواسم يعطف بعضهم على بعض ،
فالغنى يذكر الفقير والقوي يرحم الضعيف .

فأجاب : نعم ، وما رحمة الغنى بالفقير سوى نوع من حب

الذات ، وليس انعطاف القوي على الضعيف إلا شكلاً من التفوّق والافتخار .

قلت : قد تكون مصيبةً ولكن ماذا بهم الفقير الضعيف ما يجول في باطن الغني القوي من الرغائب والميول ؟ إن الجائع المسكين يحلم بالخبز ولكنه لا يفكر في الكيفية التي يعجن بها الخبز .

فأجاب : إن المهووب لا يفكر أما الواهب فيجب عليه أن يفكر ويفكر طويلاً .
فأعجبت بكلامه وعدت أناً مل منظره الغريب وأثوابه
القدمة ...

وبعد سكينة نظرت إليه فائلاً : يلوح لي أنك في حاجة ،
فهلا قلت درهماً أو درهرين ؟

فأجاب وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة مخزنة : نعم أنا
بحاجة ولكن إلى غير المال .

قلت : وماذا تحتاج ؟
فقال : أنا بحاجة إلى مأوى ... أنا بحاجة إلى مكان أُسند
إليه رأسي .

قلت : خذ مني درهرين وادهب إلى النزل واستأجر غرفة .

فأجاب : قد ذهبت إلى كل نزل في هذه المدينة فلم أجد
لي مأوى ، وطرقت كل باب فلم أرَ لي صديقاً ، ودخلت كل

مطعم فلم أعطَ خبزاً .

قلت في نفسي : ما أغربه فني يتكلّم ثارة كالفيلسوف
وطوراً كالمجنون !

ولكن لم أهمس لفظة « مجنون » في أذن روحي حتى
حدق إليّ شخصاً ورفع صوته عن ذي قبل وقال : نعم أنا
مجنون ، ومن كان مثلّي يرى نفسه غريباً بلا مأوى وجائعاً
بلا طعام .

قلت مستدركاً مستغراً : سامح ظنوني فأنا لا أعرف
من أنت وقد استغربت كلامك فهلا قلت دعوني وذهبت
معي لصرف الليلة في منزلي ؟

فأجاب : قد طرقت بابك ألف مرّة ولم يفتح لي .

قلت وقد تحققت جنوبي : تعال الآن وأصرف الليلة في
منزلي .

رفع رأسه وقال : لو عرفت من أنا لما دعوتني .

قلت : ومن أنت ؟

قال وفي صوته هدير مياه غزيرة : أنا الثورة التي تقيم ما
أفسدته الأمم . أنا العاصفة التي تقتلع الأنصاب التي أبنتها
الأجيال . أنا الذي جاء ليلقي في الأرض سيفاً لا سلاماً .
وقف منتصباً وتعالت قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه
فظهر أثر المسامير في كفيه ، فارتقت راكمعاً أمامه وصرخت

فائلًا : يا يسوع الناصري ...

وسمعته يقول إذ ذاك : العالم يعيّد لاسمي وللتقاليد التي
حاكتها الأيام حول اسمي . أما أنا فغيرب أطوف قائمًا في
غارب الأرض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف
حقيقة .

للتعالب أو جرة ولطيلور السماء أو كار وليس لابن الإنسان
أن يسند رأسه .

ورفعت رأسي إذ ذاك ونظرت فلم أرَ أمامي سوى عمود
من البخور ولم أسمع سوى صوت الليل آتياً من أعماق
الأبدية .

الجبابرة

ليس من يكتب بالخبر كمن يكتب بدم القلب .
وليس السكوت الذي يحدُثه الملل كالسكوت الذي
يوجده الألم .

أما أنا فقد سكت لأن آذان العالم قد انصرفت عن همس
الضعفاء وأذينهم إلى عویل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة أن
يسكت الضعيف عندما تتكلم القوى الكامنة في ضمير الوجود
— تلك القوى التي لا ترضي بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى
القتابل ألقاظاً .

نحن الآن في زمن أصغر صغاره أكبر من كباره ما
تقدمه . فالآمور التي كانت تشعل أفكارنا وميولنا وعواطفنا
قد انزوت في الظل . والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب
بآرائنا ومبادئنا قد توارت وراء نقاب من الاهمال . أما
الأحلام المستحبة والأشباح الجميلة التي كانت تميس منتقلة على
مسارح وجداننا فقد تبدلت كالضباب وحل محلها جبابرة تسير
كالعواصف ، وتغایل كالبحار ، وتنفس كالبلواكين .
وما عسى أن يصير إليه العالم بعد أن تنتهي الجبابرة من

صراعها ؟

هل يعود القروي إلى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت
جماعم القتلى ؟

هل يقود الراعي مواسيه إلى مروج مزقت أدعيها السيف
ويوردها منهاهل يتزوج ما ذرأها بنجيع الدماء ؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردد
الشاعر قصائد أمام كواكب حجابت بالدخان ، وينعم المنشد
أغانيه في ليل عانقت سكينته الأهوال ؟

هل تجلس الام بجانب سرير رضيعها مرتبة بهدوء أغاني
النوم وهي لا ترنف وجلاماً سيسجلبه الغد ؟

هل يلتقي الحبيب بحبيبة ويتبدلان القبل حيث التقى
العدو بعده وتبادلوا القذائف ؟

وهل يعود نisan إلى الأرض ويستر بقميصه أعضاءها
المكلومة ؟

ليت شعري ، هل يعود نisan إلى الحقول ؟

وَمَا عَسَى تَصِيرُ إِلَيْهِ بِلَادَكُمْ وَبِلَادِيْ ؟ وَأَيّْ مِنْ الْجَبَابِرَةِ
يَضْعُ يَدَهُ عَلَى تَلْكَ التَّلَالِ وَالْمُضَبَّاتِ الَّتِيْ أَنْبَتَنَا وَصَيَرْتَنَا رِجَالًا
وَنِسَاءً أَمَامَ وَجْهِ الشَّمْسِ ؟

هل تبقى سوريا مطروحة بين مغاور الذئاب وحظائر

الخنازير ، أم تنتقل مع العاصفة إلى عرين الأسد أو ذرورة النسر ؟

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ؟

كلما خلوتُ بنفسي أطرح عليها هذه السؤالات ، غير أن النفس كالقضاء تبصر ولا تتكلم ، وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهي ذات عيون تتجلى واقدام تتسارع ، أما لسانها فتقبل .

ومن منكم أهيا الناس لم يسأل نفسه في كل يوم وليلة عن مصير الأرض وسكنها بعد أن تختصر الجبارة من دموع الأرامل والأيتام ؟

أنا من القائلين بسنة النشوء والارتفاع ، وفي عربى ان هذه السنة تتناول بفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنتقل بالأديان والحكومات من الحسن إلى الأحسن انتقالاً بالمخロقات كافة من المناسب إلى الأنسب . فلا رجوع إلى الوراء إلا في الظاهر ولا انحطاط إلا في السطحي .

ولسنة الارتفاع سبل متشعبه يتفرع بعضها من بعض ولكنها متلازمة الأصول ، ومظاهر فاسية ظالمة مظلمة تنكرها الأفكار المحدودة وتمرد عليها القلوب الضعيفة ، أما خفاياها فعادلة منيرة ، متمسكة بحق أسمى من حقوق الأفراد ، محدقة إلى غرض أعلى من مرام الجماعة ، مصغية إلى صوت

يغمر بهوله وعذوبته تنهات المنكوبين وغضّات المتوجعين .
حولي بكل مكان أقزام يرون عن بعد أشباح الجبارة
متناضلين ويسمعون في النّام صدى تهاليلهم فيضجّون كالضفادع
قائلين : قد رجع العالم إلى فطرته الوضعية . فما بنته الأجيال
بالعلم والفن قد هدمه الإنسان الوحشي بالطمع والأناية ،
فحالنا اليوم حال سكان الكهوف ولا يميزنا عنهم سوى آلات
نبتدعها للدمار وحيل نستخدمها للهلاك !

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون خمير العالم بقياس
ضمائرهم ، ويخللون مراد الوجود بالفكرة القصيرة التي يستخدمونها
لحفظ وجودهم الفردي . فكأنّ الشمس لم تكون إلا لتدفّتهم ،
وكان البحر لم يوجد إلا لغسل أرجلهم .

من أحشاء الحياة ، من وراء المرئيات ، من أعماق الكون
المدبر حيث تchan أمراء الكون المدبر قد انبثقت الجبارة
كالريح وتتصاعدوا كالغيوم ثم تلاقوها كالجبال وهم الآن يتصارعون
ليحلوا مشكلة في الأرض لا يحملها غير الصراع .
أما البشر وكل ما في رؤوسهم من المدارك وال المعارف ،
وما في قلوبهم من المحنة والبغضاء ، وما يعانق نفوسهم من
الصبر والجزع والأوجاع فألات يتناولها الجبارة ويديرونها
توصلا إلى غاية علوية لا بد من بلوغها .

أما الدماء التي أهرقت فسوف تجري أنهاراً كثيرة ، وأما
الدموع التي نثرت فستنبت أزهاراً زكية ، وأما الأرواح
التي فاضت فسوف تجتمع وتتألف وتطلع من وراء الأفق
الجديد صباحاً جديداً فيعلم الناس انهم قد ابتعوا الحق في
سوق البؤس وان من ينفق في سبيل الحق لن يخسر .
وأما نيسان فسيعود - لكن من يطلب نisan من غير
كاف الشفاء فلن يجد له .

مات أهلي

كتبت أيام المجاعة

مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدي وانفرادي .
مات أحبابي وقد أصبحت حيافي بعدهم بعض مصافي بهم .
مات أهلي واحبابي وغمرت الدموع والدماء هضبات
بلادى ، وأنا ه هنا أعيش مثلما كنت عائشًا عندما كان أهلي
واحبابي جالين على منكبي الحياة وهضبات بلادى مغمورة
بنور الشمس .

مات أهلي جائعين ، ومن لم يت منهم جوعاً قضى بحد
السيف ، وأنا في هذه البلاد القصبة أسير بين قوم فرحين
مغبطين يتناولون المأكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون
على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيام والأيام تضحك لهم .
مات أهلي أذل ميتة ، وأنا ه هنا أعيش في رغد وسلام .
وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح نفسي .

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين مضطهدآ بين قومي
المضطهدين ، لكان الأيام أخف وطأة على صدرني ، والليالي
أقل سواداً أمام عيني ، لأن من يشارك أهله بالأسى والشدة

يشعر بذلك التعزية العلوية التي يولدتها الاستشهاد ، بل يغتخر
بنفسه لأنَّه يوت بريئاً مع الأبراء .

ولكنني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدرين ، السائرين
في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا هنا وراء
البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة . أنا
هنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن اغتخر بشيء
حتى ولا بدموعي .

وماذا عسى يقدر المنفي البعيد أن يفعل لأهله الجائعين ؟
ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه ؟
لو كنت سبلاة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل
الجائع يلقطني ويزيل محبتي يد الموت عن نفسه .
لو كنت ثرة يانعة في بساتين بلادي ل كانت المرأة الجائعة
تنالوني وتقضيني طعاماً .
لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني
ويزيل مجسدي ظل القبر عن جسده .

ولكن ، واحر " قلباً ، است بسبلاة من القمح في سهول
سوريا ، ولا بشمرة يانعة في أودية لبنان . وهذه هي نكبي .
هذه نكبي الصامدة التي تجعلني حقيراً أمام نفسي وأمام أشباح
الليل .

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساي وتكبل يدي " ثم

توقفني بلا عزم ، ولا إرادة ، ولا عمل .

يقولون لي : ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ،
وما الدموع والدماء التي أهْرقت في بلادك سوى قطرات من
نهر الدماء والدموع المتدافق ليلاً ونهاراً في أودية الأرض
وسهولها .

نعم ، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء - نكبة بلادي
جريدة حبلى بها رؤوس الأفاعي والثعابين - نكبة بلادي
مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد .

لو ثار قومي على حكامهم الطغاة ومانوا جميعاً متمردين
لقلت ان الموت في سبيل الحرية لأشرف من الحياة في ظلال
الاستسلام . ومن يعتنق الأبدية والسيف في يده كان خالداً
بخلود الحق .

لو استركت امي بحرب الأمم وانقرضت على بكرة أبيها
في ساحة القتال لقلت هي العاصفة الموجأة تهدر بعزمها الأغصان
الخضراء واليابسة معاً ، وان الموت تحت أغصان العواصف
لأشرف منه بين ذراعي الشيفوخة .

ولو زلزلت الأرض زلزاها وقلبت ظهر بلادي صدراً
وغير التراب أهلي واحبائي لقلت هي النواميس الخفية تتحرّك
بمشيئة قوة فوق قوى البشر ، فمن الجهة أن تخاول إرادتك

أسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت أهلي متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا
زرع الزرال بالدم فانقرضوا مسلحين .
مات أهلي على الصليب .

ماتوا وأكفهم بمدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم مخدفة
إلى سواد الفضاء .

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم .
ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم
كالجادين .

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .

ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .

ماتوا لأنهم كانوا مسلمين .

ماتوا جوعاً في الأرض التي تدر لبناً وعشلاً .

ماتوا لأن الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في حقوقهم من
المواشي وما في أهراماتهم من الأقوات .

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد نفثوا السوم في الفضاء
الذي كانت تملؤه أنفاس الأرض وعطور الورود والياسمين .

*

مات أهلي وأهلكم أهلاً السوريون ، فماذا نستطيع أن نفعل
لمن لم يمت منهم ؟

إن نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم ،
إذن ماذا نفعل لتنقذهم من الجوع والشدة ؟
هل نبقى مرتابين ، متربدين ، متراكسين ، مشغولين عن
المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغرتها ؟
إن العاطفة التي يجعلك ، يا أخي السوري ، تعطي شيئاً من
حياتك لمن يكاد يفقد حياته هي هي الأمر الوحيد الذي يجعلك
حريراً بنور النهار وهدوء الليل .
وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو
هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق
البشرية .

الأمم وذواتها

الأمة بجموع أفراد متباني الأُخْلَاقِ والمشاربِ والآراءِ
تضمهم رابطة معنوية أقوى من الأخلاق وأعمق من المشاربِ
وأعم من الآراءِ .

وقد تكون الوحدة الدينية بعض خيوط هذه الرابطة ،
غير أن الخلاف في العقيدة لا يخل الروابط الأُممية إلا إذا
كانت ضعيفة واهية كما هي في بعض البلاد الشرقية .

وقد تكون وحدة اللغة سبباً أساسياً لإيجاد هذه الرابطة ،
ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلم لغة واحدة مع أنها في
خلاف مستمر من حيث السياسة والإدارة والنظريات الاجتماعية .
وقد تكون الوحدة الدمومية أساساً لهذه الرابطة ، ولكن
في التاريخ أمثلة عديدة نستدل منها على أن افخاذ عنصر واحد
انشقت بعضها على بعض وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن
والتباغض ثم الاضمحلال .

وقد تكون المصلحة المادية نولاً تحاك عليه تلك الرابطة ،
ولكن هناك شعوب عديدة لم تحك مصلحتهم المادية سوى
المنافسة والمناقشة .

إذن ما هي تلك الرابطة الاجتماعية ؟ وما هي التربة التي
تنبت فيها انصاب الأمم ؟

لي رأي في الرابطة الاممية قد يحسبه بعض المفكرين غريباً
لأن أصوله ونتائجها ليست من الأمور المحسوسة .

أما رأي فهو هذا :

لكل شعب ذات عامة ، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات
الفرد . ومع ان هذه الذات العامة تستمد كيانها من أفراد
الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتربة والنور
والحرارة فهي مستقلة عن الشعب وهذا حياة خاصة وارادة
منفردة . وكما يصعب على " تحديد وتعيين الزمن الذي تتولد
فيه ذات الفرد الواحد هكذا يصعب على " تعين وتحديد الزمن
الذي تتولد فيه الذات العامة . غير أنني أشعر ان الذات
المصرية - مثلاً - قد تبلورت قبل ظهور الدولة الأولى على
ضفاف النيل بزمن لا يقل عن خمسة سنت . ومن تلك
الذات العامة قد استمدت مصر مظاهرها الفنية والدينية
والاجتماعية . وما أقوله عن مصر يصح في اشور وفارس
واليونان ورومة وغيرها من الأمم الحديثة ، أعني تلك التي
ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة .

قلت ان للذات العامة حياة خاصة . نعم ، ولما كان لكل
حي عمر محدود كان لتلك الذات العامة أجل محدود

لا تتجاوزه . ومثلا يسير الكيان الفردي من الطفولة إلى الشبيبة ، إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة ، هكذا يتدرج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموشحة بنقاب النوم ، إلى يقظة الظهر المتجلبة بنور الشمس ، إلى يقظة المساء المتسربة بلباس التضجر ، إلى يقظة الليل المغورة بالتعاس ، إلى سبات عميق . إن الذات اليونانية قد استيقظت في القرن العاشر قبل المسيح ، ومشت بعزم وجلال في القرن الخامس قبل المسيح . ولما بلغت عهد الناصري كانت قد ملت أحلام اليقظة فنامت على مضجع الأبدية لتعانق أحلام الأبدية .

أما الذات العربية فقد تحولت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام ، ولم تتمحض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصرة متغيرة على كل ما يقف في سبيلها . ولما بلغت العباسين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أولاً في الهند وآخرها في الاندلس . ولما بلغت عاصري نهارها وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وفند من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقطنها فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً . وقد تعود وتفيق ثانية لتبين ما بقي خفياً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس وأكملت في البندقية وفلورنسا وميلانو ما ابتدأت به قبل أن تbagتها الشعوب

التوتونة في بدء الأجيال المظلمة .

وأغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنسية ،
 فهي قد عاشت ألفي سنة أمام وجه الشمس ولم تزل في شبيبة
نضرة . وهي اليوم أدق فكراً وأحد نظراً وأوسع فتاً
وعلماً مما كانت في أي زمن من تاريخها .

فرودان وكارير وشيتان وهوغو ورينان وساسه وسيموئلي ،
وجميعهم من أبناء القرن التاسع عشر ، كانوا أعظم رجال
العالم فتاً وأكثربن علمًا وأبعدهم خيالاً ، الأمر الذي يدلنا على
أن بعض الذوات العامة أعماراً أطول من الأخرى . فالذات
المصرية عاشت ثلاثة آلاف سنة . أما الذات اليونانية فلم
تعش أكثر من ألف سنة . وقد تكون الأسباب في طول
آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة بأسباب قصر أعمار
الأفراد أو طولها .

وماذا ياترى محل بالذات العامة بعد أن تلعب دورها على
مسرح الوجود ؟

هل غوت وتقى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى
لمن يحيي بعدها ؟ هل تضمحل أمام الأيام والليالي كأنها لم
تكن مظهراً لليلي والأيام ؟

في عقidi أن الكيان المعنوي يتغير ولكنه لا ولن
يضمحل . فهو كالكتاب المادي يتحول من شكل إلى شكل

ومن صورة إلى صورة ، أما دقائقه وذراته الوضعية فباقية
بيقاء الزمن . فذات الأمة العامة تمام ولكن نوم الأزاهر
بعد أن تلقى بذورها في تربة الأرض ، أما عطرها فيتصاعد
إلى عالم الخلود . وعندني أن العطر في الأمة أو في الزهرة هو
الحقيقة المجردة ، هو الجوهر المطلق . فعطر ثيب وبابل
ونينوى واثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الأثيري للمحيط
بالأرض ، بل هو موجود في أعماق أرواحنا . ونحن ، أفراداً
وجماعات ، ورثة كل الذوات العامة التي وجدت على سطح
الأرض .

غير أن ذلك الارث العلوي لا يتخذ له صوراً محسومة
في الفرد أو الجماعات حتى تبلور الأمة التي ينتمي الأفراد
والجماعات إليها وتصير ذاتاً لها حياة خاصة وإرادة منفردة .

فلسفة المنطق

أو معرفة الذات

في ليلة من ليالي بيروت المطرة جلس سليم أفندي دعيبس أمام منضدة فوقها أكdas من الكتب العتيقة والأوراق المنشورة يقلب الأسفار ويرفع رأسه بين الآونة والآخرى مخرجاً من بين شفتيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ . وقد كان بين يديه إذ ذاك رسالة فلسفية أوحاها سocrates لتلميذه أفالاطون في « معرفة الذات » .

كان سليم أفندي يتبصر آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضرًا إلى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون في موضوعها حتى لم تبق شاردة لفكر غربي الا لازمت فكرته ولا واردة لمعلم شرقي إلا لاحمت ذاكرته ، حتى إذا ما غرفت ذاته في موضوع معرفة الذات نهض فجأةً ومد ذراعيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً : نعم . نعم . ان معرفة الذات هي ألم كل معرفة . أما أنا فعليَّ أن أعرف ذاتي . وأعرفها تمامًا . وأعرفها بتفاصيلها ومعاملها ودقائقها وذراتها . عليَّ أن أزيل النقاب عن أسرار نفسي وأمحو الالتباس عن مكامن قلبي . بل عليَّ أن ابين معاني

كافي المعنى لكياني الميولي ، وخفايا وجودي الميولي
لوجودي المعنى .

قال هذا بمحاسة غريبة وفي عينيه تنقد شعلة «حبة
المعرفة» ، معرفة الذات ، ثم دخل إلى غرفة محاذية وانتصب
كالتمثال أمام مرآة كبيرة تصل أرض الغرفة بصفها ونظر
محدقًا إلى شبحه متفرسًا في وجهه متاملًا بشكل رأسه وخطوط
فأنتهت واجمال هيأته .

ظلَّ واقفًا جامدًا على هذه الحالة نصف ساعة كأن الفكرة
الأزلية قد ازالت عليه أفكاراً هائلة بسموها تجعله بواسطتها
يكشف بواطن روحه ويلأ بالنور خلايا ذاته . ثم فتح شفتيه
بهدوء وقال مخاطبًا نفسه :

أنا قصير القامة وهكذا كان ثابوليون وفكтор هوغو .

أنا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسينوزا .

أنا أصلع وهكذا كان شكسير .

أنفي كبير ومنحنٍ إلى جهة واحدة وهكذا كان سفرو ولا
وفولتر وجورج واشنطن .

في عيني سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيتشه .

فمي غالطي وشقي السفلى ثانية وهكذا كان شيشرون
ولويس الرابع عشر .

عنقي غالطي وهكذا كان هنريال ومرقس انطونيوس

أذناي مستطيلتان بارزتان إلى الجهة الوحشية وهكذا كان
برونز وسرفانتي .

وجنتاي بارزتان وخدائي ضامران وهكذا كان لافيات ولنكلان .
ذقني متواهراً إلى الوراء وهكذا كان غولدسميث ووليم بت .
كتفاي متباعدة فالواحدة تعلو على الأخرى وهكذا
كان غببنا وأديب إسحق .

يداي ثخينتا الكفين قصيرة الأصابع وهكذا كان بلليك
وادتون .

وبالاجمال جسدي ضعيف نحيل وهذا شأن أكثر المفكرين
الذين تتعب أجسادهم في مرامي نقوفهم ، ومن الغريب أنني
لا أستطيع الجلوس كاتباً أو مطالعاً إلا وبجانبي أوريق القهوة
مثلكما كان يفعل بازارك . وفوق ذلك فلي ميل إلى معاشرة
الرعام والبساطاء كتولستوي ومكسيم غوركي . وقد يزد
اليوم واليومان دون أن أغسل وجهي ويدي" وهكذا كان
يتوفن وولت وتنن . وللعجب أنني أستريح لسماع أخبار
النساء وما ي فعله في غياب أزواجهن كبوكاشيو وريبيالي .
أما عطشي إلى الحمرة فيضارع عطش نوح وأبي نواس ودي
موسه ومارلو . وأما مجاعتي للماكل الشهية والمواائد المرصوفة
بالألوان المتنوعة فتقارن بهم بطرس الأكبر والأمير بشير الشهابي .
وقف سليم افندى دقيقة عن مخاطبة نفسه ثم لمس جبهته

بأطراف بناته وزاد قائلًا : « هذا أنا . هذه هي حقيقتي . فأنا
مجموع صفات كان حائزًا عليها أعاظم الرجال من بدء التاريخ
إلى يومنا هذا . وفني جامع لهذه المزايا لا بد أن يفعل شيئاً
عظيماً في هذا العالم .

« رأس الحكمة معرفة الذات . وأنا قد عرفت نفسي في
هذه الليلة ومنذ الليلة سأبتدئ بالعمل العظيم الذي انتدبتي
إليه فكرة هذا العالم بوضعها في أعماق عناصر متعددة متباينة .
رافقت عظماء البشر من نوح إلى سocrates إلى بوكاشيو إلى أحمد
فارس الشدياق . أنا لا أدرى ما هو العمل العظيم الذي سأقوم
به ولكن رجلاً جمع في شخصه الهيولي وذاته المعنوية ما أنا
جامع فهو من معجزات الأيام ومبتكرات الليالي ... لقد
عرفت نفسي ، نعم والآلة قد عرفت نفسي ، فلتتحي نفسي
ولتعش ذاتي ولبيق الكون كوناً حتى تم أعمالي . »

ومشي سليم أفندي في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً وسياء
البشر في سخنته القبيحة وهو يردد بصوت يألف بنبراته مواء
القطط بقلقلة العظام بيت أبي العلاء القائل :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتِ بما لم تستطعه الأولون
وبعد ساعة كان صاحبنا مضطجعاً بلا بسه المشوهة على
سريره المشقلب وغطيته يلاً فضاء ذلك الحي بنغمة أدنى إلى
جمعجة الطاحون منها إلى صوت ابن آدم .

العاصفة

١

كان يوسف الفخرى في الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً في تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وادي قاديشا في شمال لبنان .

وقد اختلف سكان القرى المجاورة في أمره ، فمنهم من قال : هو ابن أسرة شريفة مثيرة وقد أحب امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلاً إلى السلوان . ومنهم من

قال : هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدوّن أفكاره وينظم عواطفه . ومنهم من قال : هو متصوّف متبعّد قد افتتن بالدين دون الدنيا . ومنهم من اكتفى بقوله : هو مجنون .

أما أنا فلم أكن من رأى هذا ولا ذاك لعلمي أن في داخل الأرواح أسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين ، غير أنني كنت أتمنى لقاء هذا الرجل الغريب وأشتري حادثته . وقد حاولت مررتين التقرب إليه لاستطاع

حقيقة وأستفسر مقاصده وأمانيه، فلم أظفر منه بسوى نظرات
حاده وبعض الفاظ تدل على الجفاء والبرودة والترفع . ففي
المرة الأولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الأرز ، حيث
بأحسن ما حضرني من الكلام فلم يرد التحية إلا بهز رأسه ثم
تحول عنى مسرعاً . وفي المرة الثانية وجدته واقفاً في وسط
كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنت منه قائلًا : قد سمعت
بالامس ان هذه الصومعة بناتها ناسك مرياني في القرن الرابع
عشر ، فهل لك علم بذلك يا سيدي ؟

فأجاب بلهجة خشنة : لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا
أريد أن أعلم . ثم أدار لي ظهره وزاد ساخراً : لماذا لا تسأل
جدى فهى أقدم عهداً وأكثر علمًا بتاريخ هذه الاودية .
فتركته مكسوفاً نادماً على تطليقى .

وهكذا مرّ عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالأسرار
تراءد خيالي وتتمايل مع افكاري وأحلامي .

٣

ففي يوم من أيام الخريف وقد كنت متوجولاً بين تلك
التلول والمنحدرات المجاورة لصومعة يوسف الفخري فاجأني

العاشرة بأهويتها وأمطارها وأخذت تتلاعب بي مثلما يتلاعب
البحر المأجوج بركب كسرت الأمواج دفته ومزقت الريح
شراعه ، فتحولت نحو الصومعة قائلاً في نفسي : هذه فرصة
موافقة لزيارة هذا المتنسك وستكون العاشرة عذري وأنوابي
المبللة شفيعي .

بلغت الصومعة وأنا في حالة يرثى لها ، ولم اطرق الباب
حتى ظهر أمامي الرجل الذي طلما تشوّفت إلى لقائه حاملاً بيده
طائراً مهشم الرأس منبوش الريش وهو يختلي كأنه على آخر
رمق من الحياة . فقلت بعد أن حييته : اعدوني يا سيدني
على مجئي إليك في هذه الحالة ، ولكن العاشرة شديدة وأنا
بعيد عن المنزل .

فتفرس في عابساً واجاب بصوت يساوره الاستكاف :
الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بإمكانك الالتجاء
إليها .

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أر مثله في
حياتي ، فعجبت لرأي الضدين : الرأفة والخشونة في وقت
واحد ، وتحيرت في أمري . وكأنه قد علم بما يخالج ضميري
فنظر إلي نظرة استياضاح واستعلام ثم قال : إن العاشرة
لا تأكل اللحوم الخامضة فلِم تخافها وتهرب منها ؟
فأجبته : العاشرة لا تحب الحوامض ولا الموالح ولكنها

فَيَلِ إِلَى الرُّطْبِ الْبَارِدِ وَلَا أَشْكُ بِأَنَّهَا سَتَجْدِنِي لِقَمَةَ الْذِيْذَةِ إِذَا
قَبَضْتُ عَلَيْهَا ثَانِيَةً .

فَقَالَ وَقَدْ انْفَرَجَتْ مَلَاحِهِ فَلِيلًا : لَوْ مُضْعِنُكَ الْعَاصِفَةِ
لِقَمَةَ لَحْصَتْ عَلَى شَرْفِ لَا تَسْتَحْقِهِ .

فَأَجَبَتْهُ : نَعَمْ يَا سَيِّدِي ، وَلَقَدْ جَنَتْ إِلَيْكَ هَارِبًا مِنْ
الْعَاصِفَةِ لَكِي لَا أَنْتَ ذَلِكَ الْشَّرْفُ الَّذِي لَا تَسْتَحْقِهِ !
فَحَوَّلَ وَجْهَهُ حَمَارًا لِإِخْفَاءِ ابْنَاسَمَةَ ضَئِيلَةً ، ثُمَّ أَشَارَ نَحْوَهُ
مَقْعِدَ خَشِبيِّ بِقَرْبِ مَوْقِدٍ تَنَاجَجَ فِيهِ النَّارُ وَقَالَ : اجْلِسْ
وَجَفَفْ أَثْوَابَكَ .

فَجَلَسَتْ بِقَرْبِ النَّارِ شَاكِرًا وَجَلَسَ هُوَ قَبَالِي عَلَى مَقْعِدٍ
مُحْفَوْرٍ فِي الصَّخْرِ وَأَخْذَ يَغْمِسُ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِ بِزَبِيجِ زَيْتِيِّ فِي
طَاسَةٍ فِي خَارِيَّةٍ وَيَدِهِنُ بِهَا جَنَاحَ الطَّائِرِ وَرَأْسَهُ الْمَجْرُوحِ . ثُمَّ التَّفَتَ
نَحْوِي قَائِلًا : قَدْ دَفَعَتِ الْرِّيحُ هَذَا الشَّحْرُ وَرُورٌ فَهَبِطَ عَلَى الصَّخْرَوْرِ
بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ .

فَقَلَتْ : وَالرِّيحُ قَدْ حَمَلَنِي أَيْضًا إِلَى بَابِكَ يَا سَيِّدِي وَأَنَا
لَآنَ لَا أُدْرِي مَا إِذَا كَانَتْ قَدْ كَسَرَتْ جَنَاحِي أَوْ هَشَّتْ
رَأْسِي .

فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِي بِشَيْءٍ مِنَ الْاِهْتِمَامِ وَقَالَ : حَبْذَا لَوْ كَانَ
لِلْأَنْسَانِ بَعْضُ طَبَاعِ الطَّيْوَرِ . حَبْذَا لَوْ كَسَرَتِ الْعَوَاصِفَ
أَجْنَاحُهُ الْبَشَرِ وَهَشَّتْ رُؤُوسَهُمْ . وَلَكِنَّ الْأَنْسَانَ مُطَبَّعًا عَلَى

الخوف والجانة ، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبئ
في سقوق الأرض ومخاورها .

فقلت وقصدني متابعة الحديث : نعم ان الطير شرفاً
ليس للانسان . فالإنسان يعيش في ظلال شرائع وتقالييد
ابتدعها لنفسه ، أما الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلي المطلق
الذى يسير بالأرض حول الشمس .

فلمعت عيناه وانبسطت ملائمه كأنه وجد بي تلميذاً سريعاً
الفهم . ثم قال : احست ، احسنت ، فإذا كنت تعتقد حقيقة
ما تقول فاترك الناس وتقاليידهم الفاسدة وشرائعهم التافهة وعش
كالطيور في مكان بعيد خالٍ إلا من ناموس الأرض والسماء .
فقلت : انى أعتقد بما أقول يا سيدى .

فرفع يده وقال بصوت يازجه التعتت والتصلب : الاعقاد
شيء والعمل به شيء آخر . كثيرون هم الذين يتكلمون
كالبحر اما حياتهم فشبهة بالستنقعات . كثيرون هم الذين
يرفعون رؤوسهم فوق قمم الجبال أما نفوسهم فتبقى هاجعة في
ظلمة الكهوف .

قال هذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قام من مكانه
ومدد الشحرور على جبة قدية بقرب النافذة . ثم تناول رزمة
من القصبان اليابسة وألقاها في الموقد قائلاً : اخلع حذاءك
وجفف قدميك فالرطوبة أضر بالإنسان من كل شيء آخر .

جفف أثوابك جيداً ولا تكن خجولاً .

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من أثوابي الرطبة . أما
هو فوقف في باب الصومعة محدقاً إلى الفضاء الغضوب .
وبعد هنيئة سأله قائلًا : هل جئت إلى هذه الصومعة منذ
زمن بعيد ؟

فأجاب دون أن يلتفت نحوه : جئت إلى هذه الصومعة
عندما كانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة
وروح الله يرف على وجه المياه .

فسكت قائلًا في سري : ما أغرب هذا الرجل وما
أصعب السبيل إلى حقيقته . ولكن لا بد من محادثته ومعرفة
خفايا روحه ، وسوف أصبر حتى يتحول شموخه إلى اللين
والدعة .

٣

وغمي الليل تلك البطاح بردائه الأسود ونم العاصفة
وغررت الأمطار حتى خُيّل إلى أن الطوفان قد جاء ثانية
ليبيد الحياة ويظهر الأرض من ادرانها . وكان ثورة العناصر
قد ولدت في نفس يوسف الفخري تلك الطمأنينة التي تحيي في

بعض الأحيان مظهراً لرد الفعل فتحول نفوره مني إلى الاستئناس بي ، فقام وأشعل شمعتين ثم وضع أمامي جرة طافحة بالحمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الآثار المحففة ، ثم جلس قبالي وقال بلهف : هذا كل ما عندي من الزاد فتفضل يا أخي وثار كني به .

تناولنا العشاء صامتين صاغين إلى وللة الريح وبكاء الأمطار . غير أنني كنت اتبصر وجهه بين اللقمة والأخرى ، مستفسراً ملامحه عن غواصه ، سائلاً معانيه عن الميل والمقاصد المستحكمة بوجданه .

وبعد أن رفع المائدة تناول من جانب الموقد ابريقاً نحاسياً وصب منه قهوة صافية زكية الرائحة في فنجانين ثم فتح عليه مفعمة بلفائف التبغ ، وقال بهدوء : تفضل يا أخي .

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وأنا لا أصدق ما تراه عيناي ، فنظر إلي وكأنه قد سمعني مفكراً فابتسم هازاً رأسه ثم قال بعد أن أشعل لفافة وشرب قليلاً من القهوة : أنت بالطبع تستغرب وجود الحمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة ، وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وأنا لا ألومك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهمن أن البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من المذاقات الطبيعية والمسرات البسيطة .

فأجبته : نعم يا سيدى ، فقد تعودنا الاعتقاد بأن من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كل ما في العالم من الملاذات والمسرات ليعيش وحده متنسكاً متقدساً مستكيناً بالماء والاعشاب .

فقال : لقد كان بإمكانى عبادة الله وأنا بين خلقه ، لأن العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد . وأنما لم أترك العالم لأجد الله لأنني كنت أجده في بيت أبي وفي كل مكان آخر ، ولكنني هجرت الناس لأن أخلاقي لا تتطبق على أخلاقهم ، وأحلامي لا تتفق مع أحلامهم . تركت البشر لأنني وجدت نفسي دولاباً يدور بين دواليب تدور يساراً . تركت المدينة لأنني وجدتها سجراً مسنداً فاسدة قوية هائلة عروقها في ظلمة الأرض وأغصانها تتعالى إلى ما وراء الغيم ، أما أزاهرها فمطامع وشرور وجرائم ، وأما أنفارها فويل وشقاء وهموم . ولقد حاول بعض المصلحين تعليمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا ، بل ماتوا قاطنين مضطهدین مغلوبين على أمرهم . واتكأ إذ ذاك إلى جانب الموقد ، وكأنه قد وجد لذة في تأثير كلامه في فرفع صوته أكثر من ذي قبل وزاد قائلاً : لا ، لم أطلب الوحدة للصلة والتنسك ، لأن الصلاة ، وهي أغنية القلب ، تبلغ آذان الله وإن تصاعدت بمزوجة بصياح ألف الآلوف ، وأما التنسك ، وهو قهر الجسد وامانة رغائب ،

فمسألة لا مكان لها في ديني ، لأن الله بنى الاجسام هي كل للأرواح وعلينا ان نحافظ على هذه المياكل لتبقى قوية نظيفة لانقة بال神性 التي تحمل فيها . لا يا أخي لم اطلب الوحدة للصلة والتلشف بل طلبتها هارباً من الناس وشرائهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجتهم ووعيهم . طلبت الوحدة لكي لا ارى اوجه الرجال الذين يدعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدرأً وشرفأً . طلبت الانفراد لكي لا ألتقي النساء اللواتي يسرن مددودات الأعنق غامزات العيون وعلى ثغورهن ألف ابتسامة وفي أعماق قلوبهن غرض واحد . طلبت الانفراد لكي لا أجالس ذوي نصف المعرفة الذين يصررون في المنام خيال العلم فيتخيلون أنهم أصبحوا من المدارك بقامت النقطة من الدائرة . ويرون في البقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهون أنهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لأنني مللت بجمالية الخشن الذي يظن الاطفال ضرباً من الضعف ، والتساهل نوعاً من الجبانة ، والترفع شكلأ من الكبرباء . طلبت الخلوة لأن نفسي تعبت من معاشرة المتمولين الذين يظنون أن الشموس والأقمار والكواكب لا تطلع إلا من خزاناتهم ولا تغيب إلا في جيوبهم ، ومن الساسة الذين يتلاعبون بأمانى الامم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الألفاظ ، ومن الكهان

الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطبوه من نفوسهم . طلبت الوحدة والانفراد لأنني لم أحصل على شيء من يد بشري إلا بعد أن دفعت ثمنه من قلبي . طلبت الوحدة والانفراد لأنني سئمت ذلك البناء العظيم المأهول المدعو حضارة ، ذلك البناء الدقيق الصنع والمهندسة القائمة فوق رأية من الجماجم البشرية . طلبت الوحدة لأن في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الحالية لأن فيها نور الشمس ورائحة الأزهار وأنغام السواني . طلبت الجبال لأن فيها يقظة الربيع وأسواق الصيف وأغاني الخريف وعزم الشتاء . جئت إلى هذه الصومعة المنفردة لأنني أريد معرفة أمرار الأرض والدنو من عرش الله .

وسلكت متنفساً الصعداء كأنه ألقى حبلًا ثقيلاً عن عاتقه وقد تلمعت عيناه بأشعة غريبة سحرية وظهرت على وجهه امارات الانفة والارادة والقوة .

ومرت بعض دقائق وأنا أنظر إليه مسروراً بظهور ما كان محجوباً عنّي . ثم خاطبته قائلاً : أنت مصيبة في كل ما قلته ، ولكن الا ترى يا سيدي أنك بتخسيصك أمراض المجتمع وأوصابه قد أثبتت لي أنك أحد الأطباء الماهرین وأنه لا يجد بالطبيب الاعراض عن العليل قبل أن يشفى أو يموت ؟ ان العالم بحاجة ماسة إلى أمثالك وليس من العدل أن تعزل عن

الناس وأنت قادر على نفعهم .

فحدق إلى هنئه ثم قال بلجة ملؤها القنوط والماراة :
منذ البدء والأطباء يحاولون إنقاد العليل من عنته . فمنهم من
جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم
ماتوا جميعاً دون رجاء ولا أمل ، ويا ليت عليل الدهور
يكفي بلازمته مضجعه القدر ومؤانسة قرونه المزمنة ، ولكنه
يعد يده من بين اللحاف ويقبض على عنق كل من يزوره مريضاً
ويختنقه . والأمر الذي يغطيوني وبخواص الدم في عروقي إلى نار
حرقة هو أن ذلك العليل الحبيث يقتل الطبيب ثم يعود فيغمض
عينيه قائلاً لنفسه : لقد كان بالحقيقة طيباً عظيماً . . .
لا يا أخي . ليس بين الناس من يستطيع أن ينفع الناس ،
فالحارث وإن كان حكيمًا ماهراً لا يقدر على استنبات حقله
في أيام الشتاء .

فأجابته قائلاً : قد يمر شقاء العالم يا سيدى ويجيء بعده
ربيع بهي جميل فتظهر الأزهار في الحقول وتترنم الجداول
في الأودية .

فقطب ما بين عينيه متندداً ، وبصوت تعانقه الكآبة قال :
ليت شعري هل قسم الله حياة الإنسان ، وهي الدهر بكامله ،
إلى فصول تشابه فصول السنة بسيرها وتتابعها ؟ هل يظهر على
سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيا بالروح

والحق ؟ هل يأتي زمن يتتجدد فيه الانسان فيجلس عن يمين
الحياة فرحاً بنور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك ياترى ؟
هل يتم ذلك بعد أن تشبّع الارض من حлом البشر وتترنّى
من دمائهم ؟

وانتصب إذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنه يشير
إلى عالم غير هذا العالم : تلك أحلام بعيدة ، وليس هذه
الصومعة منزلة للأحلام ، لأن ما أعلمه يقيناً يشغل كل فسحة
وكل قرنة فيها ، بل يشغل كل مكان في هذه الأودية وهذه
الجبال . أما ما أعلمه يقيناً فهو هذا : أنا كان موجود ، وفي
أعماق وجودي جوع وعطش ، ولني الحق أن أتناول خبز
الحياة ونحمرها من الآية التي أصنعها بيدي . من أجل ذلك
تركت موائد الناس وللائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه
حتى النهاية .

وأخذ يشي ذهاباً وإياباً في وسط تلك الغرفة وأنا أتأمله
وأفكّر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صورت له الجامدة
البشرية بخطوط عوجاء وألوان فاقعة ، ثم استوقفته قائلًا : اني
احترم أفكارك ومقاصدك يا سيدى ، وأحترم وحدتك
وانفرادك ، غير اني أعلم ، والعلم مجلبة الاسف ، ان هذه
الأمة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلاً موهوباً قادرآ
على خدمتها وإيقاظها .

فأجاب هازاً رأسه : ليست هذه الأمة إلا كالأمم كافة .
فالناس من جبلة واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض
إلا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتدُ بها ؟ فتعasse
الأمم الشرقية هي تعasse الأرض بكمالها ؛ وليس ما تحسبه
رقياً في الغرب سوى شبح آخر من أشباح الفرور الفارغ .
فالرياء يظل رباء وان قلم أظافره ، والغش يبقى غشًا وإن
لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقًا إذا لبس الحرير
وسكن القصور ، والخداع لا يتحول إلى أمانة إذا ركب
القطار أو اعتلى المنطاد ، والطبع لا ينقلب قناعة إذا قاس
المسافات او وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وإن
سارت بين المعامل والمعاهد ... أما العبودية : العبودية للحياة ،
ال العبودية للماضي ، العبودية للتعاليم والعوائد والأزياء ، والعبودية
للآموات فستبقى عبودية وان طلت وجهها وغيرت ملابسها .
العبودية تظل عبودية حتى إذا دعت نفسها حرية . لا يا أخي
ليس الغربي أرقى من الشرقي ولا الشرقي أحاط من الغربي ،
وما الفرق بينهما إلا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع .
ولقد نظرت فرأيت وراء مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً
أولياً عادلاً يفرق التعasse والمعاوة والجهالة على السواء فلا يميز
شعباً عن شعب ولا يظلم طائفة دون طائفة .
فقد بلغ في الاستغراب حد الالتباس : إذاً فالمدنية

باطلة وكل ما فيها باطل .

فأجاب متهيحاً : نعم باطلة هي المدنية وباطل كل شيء فيها . فما الاختراعات والاكتشافات سوى الاعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل والضجر ؟ وما تقصير المسافات وتمديد الجبال والأودية والتغلب على البحار والفضاء غير أثار غشائة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذى القلب ولا ترفع النفس . أما تلك الألغاز والأحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل ذهبية يجرها الإنسان مبتهاجاً بلمعانها وربعن حلقاتها ؛ بل هي أقفال ابتدأ الإنسان بتطرفها أعدتها وأسلاكها منذ القدم غير عالم بأنه لا ينتهي من صنعها إلا ويجد نفسه أسيراً مسجونةً في داخلها ... نعم باطلة هي أعمال الإنسان وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والأمني وباطل كل شيء على الأرض . وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خلائق بحب النفس وشوقها وهياها - ليس هناك غير شيء واحد .

فقلت : وما ذلك يا سيدى ؟

فوقف دقيقة ساكتاً ثم أغصض أجفانه واضعاً يديه على صدره وقد أشرق وجهه وانبسطت ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قال : هي يقظة في النفس ، هي يقظة في عمق أعمق النفس . هي فكرة تفاجىء وجدان الإنسان على حين غفلة

وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالأنيق ، محاطة بالحالات ، منتصبة كبرج من النور بين الأرض واللأنهية . هي شعلة من شعارات ضمير الوجود تتأجج فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد ساقحة مرفرفة في الفضاء الواسع . هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل ما يخالفها ، كارهاً كل شيء لا يحيط بها ، متمرداً على الذين لا يفهمون أسرارها – هي يد خفية قد أزالت الغشاء عن عيني وأنا في وسط الاجتماع بين أهلي وأصحابي ومواطني ” فوقفت مندهلاً مدھوساً فائلاً في نفسي : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين إلي ” وكيف عرفتهم ، وأين لقيتهم ، ولماذا أقيم بينهم ؟ بل لماذا أحالسهم وأحاديثهم ؟ هل أنا غريب بينهم ، أم هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي وأسلمني مفاتيحها . . .

وسكت فجأة كأن الذكرى قد رسمت على حافظته صوراً وأشباعاً لا يريد إظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً : هذا ما حل ” في منذ أربع سنوات فتركت العالم وجلت هذه البرية الحالية لأعيش في اليقظة متنبعاً بالتفكير والعاطفة والسكينة .

ومشي إذ ذاك نحو باب الصومعة ناظراً إلى أعماق الليل ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة : هي يقطة في أعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع إظهارها بالكلام ومن لم يعرفها لا ولن يدرك أسرارها .

و مررت ساعة طويلة بمنطقة بحث الفكر ونداء العاصفة
 و يوسف الفخرى يمشي تارة في وسط تلك الحجرة ويقف طوراً
 في بابها محدقاً إلى الفضاء العابس ، أما أنا فيقيت حامتاً شاعراً
 بتوجات روحه مستظهراً أقواله ، مفكراً بحياته وما وراء
 حياته من لذة الوحدة وآلامها . و عند انقضاء المزيع الثاني
 من الليل اقترب مني ونظر طويلاً إلى وجهي كأنه يريد أن
 يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له بسر وحدته
 وانفراده . ثم قال بيته : أنا ذاهب الآن للتجول في العاصفة ،
 وهي عادة أتمتع بلدتها في الخريف وفي الشتاء . . . هاك إبريق
 القهوة واللهاق ، وان طلبت نفسك الحمر تجدها في الجرة .
 وإذا شئت النوم تجد الاحف والمساند في تلك القرنة .

قال هذا والتلف بجهة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسمًا :
 ارجوك أن توصد باب الصومعة عندما تذهب في الصباح لأنني
 سأصرف العد في غابة الأرز .

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازاً طويلاً وقال :
 إذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت في هذه التواحي فلا تتأخر عن

الاتجاه إلى هذه الصومعة . ولكنني أرجو أن تعلم نفسك
حب العواصف لا الخوف منها . . . مساء الخير يا أخي .
وخرج إلى الليل مسرعاً .

ولما وقفت في باب الصومعة لأرى وجهه كان الظلام قد أخفاه
ولكنني بقيت بعض دقائق اسْعَى وقع قدميه على حصبة الوادي .
جاء الصباح وقد مرّت العاصفة وانقضت الغيوم وظهرت
تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس ، فتركَت الصومعة
بعد أن أفلت بها وفي نفسي شيء من تلك اليقظة المعنوية التي
تكلمت عنها يوسف الفخرى .

ولكنني لم أبلغ منازل الناس وأرَ حركاتهم وأسْعَى أصواتهم
حتى وقفت قائلاً في سري : نعم ، إن اليقظة الروحية هي
أُخْلُقُ شَيْءٍ بالإنسان بل هي الفرض من الوجود ، ولكن أليست
المدنية بما فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟
وكيف يأتى نستطيع انكار أمر موجود ونفس وجوده
دليل على إثبات صلاحيته ؟ قد تكون المدينة الحاضرة عرضاً
زائلاً ولكن الناموس الأبدى جعل الاعراض سلماً تنتهي
درجاته بالجوهر المطلق .

ولم أجتمع ثانية بيوسف الفخرى لأن الحياة أبعدتني عن
شمال لبنان في أواخر ذلك الحريف فجئت منفياً إلى بلاد
قصبة عواصفها دائمة . أما التنسك فيها فضرب من الجنون .

الشيطان

كان الخوري سمعان عالماً بدقائق الأمور الروحية ،
متبسطاً بالسائل اللاهوتية ، متعمقاً بأسرار الخطاب العرضية
والميّة ، متضلعًا بخفايا الجحيم والمظهر والفردوس .

وكان يتنقل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويسفي
أرواحهم من أمراض الإثم وينقذهم من حبائل الشيطان ،
فالشيطان كان عدوًّا الخوري سمعان بمحاربه ليلاً ونهاراً بلا ملل
ولا تعب .

وكان سكان القرى يكرمون الخوري سمعان ويرتاحون
إلى ابتعاد عظامه وصلواته بالفضة والذهب ويتسابقون إلى
أهدائه أطيب ما تشره أشجارهم وأفضل ما تنبتة حقوقهم .

ففي عشية يوم من أيام الخريف ، وقد كان الخوري
سمعان سائراً في مكان خالٍ نحو قرية منفردة بين تلك الجبال
والأودية ، سمع أنيناً موجعاً آتاً من جانب الطريق ،
فالتفت فإذا برجل عاري الجسم منظره على الحصاء ونحيف
الدم يتدفق من جراح بلية في رأسه وصدره ، وهو يقول
مستنجداً : أنقذني . أعني . اشفق علي" فانا مات !

فوقف الخوري سمعان مختاراً ونظر إلى الرجل المتوجع
ثم قال في ذاته : هذا أحد المتصوّص الأشقياء وأظن انه قد
حاول سلب عابرٍ الطريق فغلب على أمره ... وهو منازع
فإذا مات وأنا بقربه اتّهمت بما أنا براء منه .

قال هذا وهم لِيَتَابِعُ السَّيرَ فَأَوْقَفَهُ الْجَرِيجُ بِقُولِهِ : لَا تَنْزَكِنِي ،
لَا تَنْزَكِنِي ! أَنْتَ تَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُكَ . أَنَا مَائِتَ لَا حَالَةَ !
فقال الخوري في ذاته وقد اصفر وجهه ، وارتعدت
شفتيه : أَظُنْهُ أَحَدَ الْمَجَانِينَ الَّذِينَ يَتَهَوَّنُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ . ثُمَّ عَادَ
فقال لنفسه : إِنَّ مَنْظَرَ جَرَاحِهِ يُخْيِي فِيمَا عَسَى أَنْ أَفْعَلَ
لَهُ ؟ .. إِنَّ طَبِيبَ النُّفُوسِ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَدْاوِي الْأَجْسَادِ .
وَمَشَى الخوري بـضـع خطـواتـ ، فصـاحـ الجـريـجـ بـصـوتـ
يـذـيـبـ الـجـمـادـ قـائـلاـ : اـقـتـرـبـ مـنـيـ اـقـتـرـبـ ، فـنـحـنـ أـصـدـقـاءـ مـنـذـ
زـمـنـ بـعـيدـ . أـنـتـ الخـوريـ سـمـعـانـ الرـاعـيـ الصـالـحـ وـأـنـاـ - أـنـاـ -
لـسـتـ بـلـصـ وـلـاـ بـجـنـونـ . اـقـتـرـبـ وـلـاـ تـدـعـنـ أـمـوـتـ وـجـبـداـ فيـ
هـذـهـ الـبـرـيـّـةـ . اـقـتـرـبـ فـأـقـوـلـ لـكـ مـنـ أـنـاـ .

فاقترب الخوري سمعان من المنازع وانحنى فوقه متفرساً
فرأى وجهًا غريب الخطوط يتألف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء ،
والقباحة بالجمال ، والحبابة بالدمائة ، فتراجع إلى الوراء وصرخ
قائلاً : من أنت ؟

فقال المنازع بصوت خافت : لا تخف يا أبـتـ فـنـحـنـ

أصدقاء منذ عهد بعيد . أعني على النهوض وسر بي إلى الساقية القرية وأغسل جراحي بمنديلك .

فصرخ الخوري : قل لي من أنت ، فانا لا أعرفك ولا أذكر أني رأيتك في حياتي .

فأجاب الجريح وحشرجة الموت تعانق صوته : أنت تعلم من أنا ، فقد لقيتني ألف مرة وشاهدت وجهي في كل مكان . أنا أقرب المخلوقات إليك ، بل أنا أعن عليك من حياتك . فصاح الخوري قائلاً : أنت كاذب محatal ، وخليق بالمنازعين الصدق ، فانا لم أر وجهك في حياتي . قل من أنت وإلا تركتك نوت مضرجاً بدمائك .

فتحرك الجريح قليلاً وشخص بعيني الخوري وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة معنوية وبصوت هادئ ، ناعم عميق قال : أنا الشيطان .

فصرخ الكاهن صوتاً هائلاً ارتعشت له زوايا ذلك الوادي ، ثم نظر إليه محدقاً فرأى ان جسد الجريح ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيئة الأبالسة في صورة الدينونة المعلقة على جدار كنيسة القرية ، ثم صرخ مرتجفاً : لقد أراني الله صورتك الجهنمية ليزيد بك كرهي ، فلتكن ملعوناً إلى أبد الآبددين ! قال الشيطان : لا تكن متسرعاً يا أبا شاه ، ولا تضيئ الوقت بالكلام الفارغ ، بل اقترب وضمد جراحي قبل أن

يسيل ما في جسدي من الحياة .

فقال الخوري : إن أصابعي التي ترفع الذبيحة الربانية في كل يوم لن تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم ، فمت ملعوناً من ألسنة الدهور وشفاه الإنسانية لأنك عدو الدهور والعامل على إبادة الإنسانية .

فقال الشيطان متسللاً : أنت لا تدرى ما تقول ولا تعلم أي ذنب تقترفه نحو نفسك . اسمع فأخبارك حكايني . كنت اليوم سائراً وحدى في هذه الأودية المنفردة ، وما بلغت هذا المكان التقيت جماعة من أجلاف الملائكة فهمجاوا عليَّ وضربوني ضرباً مبرحاً ، ولو لم يكن مع أحدهم سيف ذو حدَّتين لفتكت بهم جميعاً ، ولكن ماذا يفعل الأعزل مع المسلح ؟

وقف الشيطان عن الكلام هنيهة واضعاً يده على جرح بلين في جانبه ثم زاد قائلاً : أما الملائكة المسلح ، وأظنه ميخائيل ، فداهية يحسن ضرب السيف ، ولو لم أنظره على الأرض وأمثال دور النزع والموت لما أبقى مني عضواً بجوار عضو آخر .

فقال الخوري بصوت تعانقه رنة النصر والتغلب : ليكن اسم ميخائيل مباركاً فقد أنقذ الإنسانية من عدوها الحيث !

فقال الشيطان : ليست عداوتي للإنسانية أشدَّ سواداً من

عدا ونك لنسك . فَأَنْتَ تبارك ميخائيل وهو لم يقدر بشيء ،
ونجده على اسمي في ساعة انكساري مع أني كنت ولم أزل
سيباً لراحتك وسعادتك . ألمجحد نعاني وتنكر معروفي وأنت
عايش في ظلال كياني؟ أو لم تتخد وجودي صناعة لك واسمي
دستوراً لأعمالك؟ هل أغناك ماضي عن حاضري ومستقبل؟
هل غبت ثروتك إلى حد لا تحتمل معه الزيادة؟ ألا تعلم أن
زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقدي بل
يموتون جوعاً بموتي؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالي ،
وأية صنعة تحسنها إذا أبادت الأرباح اسمي؟ منذ خمس
وعشرين سنة وأنت تسير متجمولاً بين قرى هذا الجبل لتحذر
الناس من حبائي وتبعدهم عن مصابي وهم يتبعون مواعظك
بأنهم وأغلة حقوقهم ، فأي شيء يتعاونون منك غداً إذا
علموا أن عدوهم الشيطان قد مات ، وانهم أصبحوا في مأمن
من حبائه ومعاقله ، وأية وظيفة يسندها إليك القوم إذا
أفيفت وظيفة محاربة الشيطان بعث الشيطان؟ ألا تعلم وأنت
اللاهوقي المدقق أن وجود الشيطان قد أوجد أعداء الكيان
وأن تلك العداوة القدية هي اليد الخفية التي تنقل الفضة
والذهب من جيوب المؤمنين إلى جيوب الوعاظ والمرشدin؟
ألا تعلم وأنت العالم الحبير أنه بزوال السبب يزول المسبب؟
إذاً كيف ترضى بموتي وبموتي فقد منزلتك وينقطع رزقك

ويكف الخبر عن أفواه زوجتك وبنيك ؟
وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدلت في وجهه دلائل
الاستعطاف بامارات الاستقلال ؟ ثم عاد فقال : ألا فاسمع
أها الغبي المكابر فأريك الحقيقة التي تضم كياني إلى كيانك ،
وتربط وجودي بوجودك . في أول ساعة من الزمن وقف
الإنسان أمام الشمس وبسط ذراعيه وصرخ لأول مرة قائلاً :
ما وراء الأفلاك إله عظيم يحب الخير ! ثم أدار ظهره للنور
فرأى ظله منبسطاً على أديم التراب فهتف قائلاً : وفي أعماق
الأرض شيطان رجم يحب الشر ؟ ثم سار نحو كفه هاماً
في نفسه : أنا بين إلhin هائلين : إله أنتمي إليه ، وإله
أحابره . ومرت العصور إثر العصور والإنسان بين قوتين
مطلقتين : قوة تتصعد روحه إلى العلاء فيمار كها ، وقوة تهبط
بجسده إلى الظلمة فيلعنها . غير أنه لم يكن يدرى معانى البركة
ولا مباني اللعنة ، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها
وشتاء يعرجا . ولما بلغ الإنسان فجر المدينة وهي الألفة
البشرية ظهرت العائلة ثم القبيلة فتفرقـت الأعمال بتفرقـ
الميل ، وتبينـت الصناعات بتباينـ المشرب والمنـازع ، فقام
بعضـ من تلكـ القبيلـة بحراثـة الأرضـ ، وآخـرون بـبناءـ المـأوىـ ،
وغيرـهم بـنسـج الملـابـسـ ، وغـيرـهم بـصـهرـ المعـادـنـ . في ذلكـ المـهدـ
البعـيدـ ظـهرـتـ الكـهـانـةـ فـيـ الـأـرـضـ . وـهـيـ الـحـرـفـةـ الـأـوـلـىـ الـتـيـ

ابتدعها الإنسان دون حاجة حيوية أو داعٍ طبيعي إليها .
وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ثم فقهه ضاحكاً بصوت
ارتفاعت له تلك الأودية الحالية . وَكَانَ "الضحك قد أوسع
فوهات كلامه فأُسند خاصرته بيده متوجعاً، ثم شخص بالحوري
سمعان وزاد قائلًا: في ذلك العهد ظهرت الكهانة في الأرض.
وَإِلَيْكَ يَا أَخِي كَيْفِيَّةُ ظُهُورِهَا: كَانَ فِي الْقَبْيلَةِ الْأُولَى رَجُلٌ
يُدْعَى « لا ويص » وَلَا أَدْرِي لِمَاذَا اخْتَدَلَ هَذَا الاسمُ الغَرِيبِ .
وَكَانَ لا ويص هَذَا رَجُلًا ذَكِيرًا؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ بِطَّالًأَ مُتَوَازِيًّا ،
يُكْرِهُ حِرَاثَةَ الْأَرْضِ وَبَنَاءَ الْمَأْوَى بِكُرْهِهِ رِعَايَةَ الْمَوَاشِي
وَصَيْدَ الْوَحْشِ . بَلْ كَانَ يُكْرِهُ كُلَّ عَمَلٍ يَسْتَلزمُ السَّوَاعِدَ
وَالْحُرْكَةَ الْجَسْدِيَّةَ . وَلَا كَانَ الرِّزْقُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يَأْتِي إِلَّا
بِالْعَمَلِ كَانَ لا ويص يَبْيَتْ أَكْثَرَ لِيَالِيهِ خَاوِي الْجَوْفِ فَارْغَهُ .
فِي لَيْلَةِ مِنْ لِيَالِي الصِّيفِ وَأَفْرَادُ تِلْكَ الْقَبْيلَةِ مُلْتَشِّمُونَ حَوْلَ
كُوكُوكَ زَعِيمِهِمْ يَتَحَدَّثُونَ بِمَا تَيَّبَّبَّ يَوْمَهُمْ وَيَتَرْفَّهُونَ النَّعَاسَ ،
إِنْتَصِبُ أَحَدُهُمْ فِي جَاهَةِ وَأَسْأَرُ نَحْوَ الْقَمَرِ وَصَرَخُ بِخُوفٍ قائلًا :
انظروا نَحْوِي إِلَهِ اللَّيلِ فَقَدْ شَجَبَ وَجْهَهُ وَاضْمَعَلَ بِهَاوِهِ وَتَحُولَ
إِلَى حَجَرٍ أَسْوَدٍ مَعْلَقٍ بِقَبَّةِ السَّمَاءِ . فَشَخَصَ الْقَوْمُ بِالْقَمَرِ ثُمَّ
ضَجَّوْا صَارِخِينَ ، مَتَهِيَّبِينَ ، مَرْتَعِشِينَ ، خَائِفِينَ ، وَكَانَ أَيْدِي
الظَّلَامِ قَدْ قَبَضَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ لَأَنَّهُمْ رَأَوْا إِلَهًا لِيَالِيهِمْ يَتَحُولُ
بِبَطْءٍ إِلَى كُرْبَةِ قَافَةٍ وَقَدْ تَغَيَّرَ لِذَلِكَ وَجْهُ الْأَرْضِ وَالْخَجْبَتِ .

البطاح والأودية وراء نقاب أسود . فتقدم إذ ذاك لا ويص
وكان قد شهد الحسوف والكسوف مرات عديدة في سابق
حياته فوقف في وسط الجماعة رافعاً ذراعيه إلى العلاء ،
وبصوت أودعه كل ما في ذكائه من التصنّع والاحتياط صاح
فائلأ : اسجدوا ، اسجدوا وصلوا متھللين وغفروا وجوهكم
بالتراب ، فإله الشر" المظلم يصارع إله الليل المنير ، فإذا غلبه
متنا وإذا غالب بقينا عائشين . اسجدوا وصلوا وغفروا وجوهكم
بالتراب ، بل انقضوا أخلفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو
السماء ، لأن من يشاهد صراع إله النور وإله الشر يفقد بصره
ورشده ، ويظل مجنوناً وأعمى إلى نهاية أيامه . خروا راكعين
وساعدوا بقلوبكم إله النور على عدوه .

وظل لا ويص يتكلّم بهذه اللهجة مبتدعاً من خياله الفاظاً
جديدة غريبة مردداً كلمات ما سمعوها قبل تلك الليلة ، حتى
إذا ما مر " نصف ساعة وقد عاد القمر إلى سابق كماله وجلاله
رفع لا ويص صوته عن ذي قبل وقال بلهجة تعانقها رنة
البطة والسرور : قفووا الآن وانظروا فقد تغلب إله الليل على
عدوه الشرير وتتابع سيره بين الكواكب والنجوم . واعلموا
أنكم بركوعكم وابتھالكم قد نصرتوه ومررتواه ولذلك ترونـه
الآن أبهى نوراً وأشد لمعاناً .

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فإذا به قد عاد ساطعاً منيراً ،

فتتحول خوفهم إلى طمأنينة واضطرابهم إلى مسرة وأخذوا يقفزون راقصين ويصرخون مهلاين ويضربون بنبایتهم صفائح الحديد والنحاس مفعمين خلابياً ذلك الوادي بعوبلهم وضجيج هجتهم ... في تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له : لقد اتيت في هذه الليلة بما لم يأته بشري قبلك ، وعلمت من أسرار الحياة ما لا يعلمه بينما سواك . فافرح وابتهج لأنك ستكون من الآن وصاعداً صاحب المقام الأول من بعدي في هذه القبيلة . فأنا أشد الرجال بطشاً وأفراهم ساعداً وأنت أكثر الرجال معرفة وأكثرهم حكمة ، بل أنت الوسيط بيني وبين الآلهة تبلغني مشيتهم وتبيّن لي أعمالهم وأسرارهم وتعلمني ما يجب أن أفعله لأكون حاصلاً على رضاهم ومحبتهم .

فأجاب لاويص : كل ما يقوله لي الآلهة في الحلم أقوله في البقظة ، وما أراه من مآتיהם أظهره لك ، فأنا الوسيط بينك وبين الآلهة .

فسرَ الزعيم ووهب لاويص فرسين وبسبعين عجول وبسبعين كبشآ وبسبعين شاة وقال له : سوف يبني لك رجال القبيلة بينما ياثل بيتي ، وسيهدون لك في نهاية كل موسم قسماً من غلة الأرض وأفارها فتعيش سيداً مطاعاً مكرماً .

وانصب إذ ذاك لاويص للانصراف فاؤقه الزعيم وسأله قائلاً : ولكن من هو هذا الإله الذي تدعوه بإله الشر ؟

من هو هذا الإله الذي يحسر أن يصارع إله الليل البهبي ؟ إننا
لم نسمع به قط ولا علمنا بوجوده .

ففرك لا ويص جبته وأجاب قائلاً : أعلم يا سيدى انه في
قديم الزمان ، وذلك قبل ظهور الإنسان ، كان جميع
الآلهة يعيشون بسلام ومودة في مكان فضي وراء المجرة .
وكان إله الآلهة ، وهو والدهم ، يعلم ما لا يعلمهونه
ويفعل ما لا يستطيع أحدهم أن يفعله ، ويحفظ لنفسه بعض
الأسرار الربانية الكائنة وراء النوميس الأزلية . ففي العصر
السابع من الدهر الثاني عشر ترددت روح بعطار وهو يكره
إله الأعظم ، فوقف أمام أبيه وقال : لماذا تحفظ لنفسك
السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجباً عنا أسرار
الأكون ونوميس والدهور ؟ أو لسنا أبناءك وبناتك
ومشاركين لك بقوتك وخلودك ؟

فغضب إله الآلهة وأجاب : سوف أحفظ لنفسي القوة
الأولية والسلطة المطلقة والأسرار الأساسية إلى أبد الدهر ،
فأنا البدء وأنا النهاية . فقال بعطار : إن لم تقاسني قوتكم
وجبروتكم ترددت أنا وأبنائي وأحفادي على قوتكم وجبروتكم .
فانتصب إذ ذاك إله الآلهة فوق عرشه وقد امتنق المجرة
سيفياً وقبض على الشمس ترساً ، وبصوت ارتعشت له جوانب
العالم صرخ قائلاً : ألا فاهبiet أيها المتمرد الشرير إلى العالم

الأدنى حيث الظلمة والشقاء وابق هناك منفياً شريداً فماهَا
حتى تقلب الشمس رماداً وتتحول الكواكب إلى هباء منتشر.
في تلك الساعة هبط بعطار من مقر الآلهة إلى العالم الأدنى حيث
تقيم الأرواح الخبيثة . وقد أقسم بسر خلوده انه سيصرف
الدهور حارباً والده وإخوانه واضعاً الأشرار لكل حب
لوالده أو مرید لإخوانه .

فقال الزعيم وقد نقلصت جبهته وأصفر وجهه : إذا
فاسم إله الشر بعطار ؟

فأجاب لا ويص : كان اسمه بعطار إذ كان في مقر الآلهة ،
ولكنه اخذ بعد هبوطه إلى العالم الأدنى أسماء أخرى منها
بعازبول وإبليس وسطنائيل وبليال وزميال واهريان وماره
وابدون والشيطان ، وأشهرها الشيطان .

فرد الزعيم لفظة الشيطان مرات بصوت مرتعش يشابه
حفيق الأغصان اليابسة لمرور الماء ، ثم قال : ولماذا
يأتى يكره الشيطان البشر بكرهه الآلهة ؟

فأجاب لا ويص : إن الشيطان يكره البشر ويعمل على
إبادتهم لأنهم من نسل إخوانه وأخواته .

فقال الزعيم محتاباً : إذا فالشيطان هو عم البشر وخالمهم ؟
فأجاب لا ويص وقال بلهجة لا تخلو من التشوش
والالتباس : نعم يا سيدى ، ولكنه عدوهم الأكبر ومناظرهم

الحقود ، يملاً أيامهم بالتعاسة ولياليهم بالأحلام المخيفة . فهو القوة التي تحول العاصفة نحو أكواخهم وتحرق بالقبيظ مزارعهم وتقرض بالأوبئة مواشיהם وتلامس بالأمراض أجسادهم . هو إله قوي شرير خبيث يضحك لشقائنا ويكتسب لأفراحتنا ، فعلينا أن نتفحص طباعه لنتقي شره وندرس أخلاقه لنبتعد عن سبيل احتياله .

فأسند الزعيم رأسه على نبوته وهمس قائلاً : قد عرفت الآن ما كان خافياً عنِّي من أسرار تلك القوة الغريبة التي تحول العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالأوبئة مواشينا ، وسوف يعرف البشر كافة ما أعرفه الآن فيطوبونك يا لاويص لأنك أبنت لهم خفايا عدوهم القوي وعلمتهم كيف يتقوّن حبائله . وانصرف لاويص من أمام زعم القبيلة وذهب إلى مرقده فرحاً بذكاء فكرته ، نشوان بخمرة خيالية . أما الزعيم ورجاله فقد صرفووا تلك الليلة يتقلبون على مرافق مخاطة بالأشباح المخيفة والأحلام المزعجة .

ووقف الشيطان الجريح دققة عن الكلام والخوري سمعان يحدق إليه وفي عينيه جمود الحيرة والاستغراب وعلى شفتيه ابتسامة الموت .

ثم استأنف الشيطان الكلام قائلاً : كذا ظهرت الكهانة في الأرض وهكذا كان وجودي سبباً لظهورها . وقد كان

لا ويص أول من اخند عداوتي صناعة . وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لا ويص بواسطة أبنائه وأحفاده فنمّت وتدرجت حتى صارت فتاً دقيقاً مقدساً لا يتخذه غير أصحاب العقول المختمرة والأنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع . ففي بابل كان الناس يسجدون سبع مرات أمام الكاهن الذي يحاربني بتعازيه . وفي نينوى كانوا ينظرون إلى الرجل الذي يدعى معرفة أسراري وخفافيسي كحلقة ذهبية بين الآلهة والبشر . وفي ثيب كانوا يلقبون من يصارعني بابن الشمس والقمر . وفي بابلس وأفسس وانطاكية كانوا يضعون أنباءهم وبنائهم بأرضاء شخصي . وفي أورشليم ورومة كانوا يضعون أرواحهم في قبة من يتغنى في كرهي وإبعادي . في كل مدينة ظهرت أمام وجه الشمس كان اسمى محوراً لدوائر الدين والعلم والفن والفلسفة . فالمياكل لم تقم إلا في ظلالي ، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهري ، والتصور والبروج لم ترتفع إلا برفعه منزلي . فأنا العزم الذي يولد العزم في البشر ، وأنا الفكرة التي تستتبّ الحيلة في الأفكار ، وأنا اليد التي حرّكت أيدي الناس . أنا الشيطان الأزلي الأبدي . أنا الشيطان الذي يحاربه الناس ليظلوا عائشين . فإذا كفوا عن منازلي لهم يوقف الخمول أفكارهم وبيت الكسل أرواحهم وتفني الراحة أجسادهم . أنا الشيطان الأزلي

الأبدي . أنا عاصفة هو جاء خرساء أهبه في أدمغة الرجال
وصدور النساء وأجرف ميولهم إلى الأديرة والصوماع ليجدون في
بنو فهم مني أو إلى منازل البغي والخلاعة ليفرجوني باستسلامهم
إلى مشيئتي . فالراهب الذي يصلى في سكينة الليل لكي أبتعد
عن مضجعه هو كالمومسة التي تناذني لكي أقترب من
مضجعها . أنا الشيطان الأزلي الأبدي . أنا باني الأديرة والصوماع
على أسس الخوف ، وأنا مقيم الخامارات وبيوت الفحش على
أسس الشهوة واللذة . فإن زال كياني زال الخوف واللذة
من العالم ، وبزو المما تض محل الميل والأمان في القلب
البشرى فتصبح الحياة خالية مقرفة باردة كقطار مقطعة الأوتار
مكسرة الجوانب . أنا الشيطان الأزلي الأبدي . أنا موحي
الكذب والنمية والاغتياب والفسق والسخرية ، فإذا انقرضت
هذه العناصر في العالم أصبحت الجامعة البشرية كبسن مهجور
لا تنبت فيه سوى أشكال الفضيلة . أنا الشيطان الأزلي الأبدي .
أنا أبو الخطية وأمها ، فإذا ما زالت الخطية زال محاربها
وزلت أنت أيضاً وزال أبناؤك وأحفادك وزملاؤك ورفاقاؤك .
أنا أبو الخطية وأمها ، فهل تري أن موت الخطية يبني ؟ هل
تري أن تقف الحركة البشرية بوقوف نبضات قلبي ؟ هل تري
أن يخو السبب لتمحي المسبيات ؟ أنا هو السبب الضعبي ، فهل
تري أن أموت في هذه البرية الحالية ؟ أجبني إليها اللاهوتي ، هل

ترى أن تنتهي العلاقة الأولية الكائنة بينك وبيني ؟
وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه إلى الأمام وتنهى
طويلاً فظهر بلونه الرمادي المائل إلى الأخضرار كأحد تلك
الثائيل المصرية التي أبقاها الدهر مطروحة على ضفاف النيل .
ثم حدق إلى وجه الخوري سمعان بعينين مشعشعتين كالمسارج
وقال : لقد هنكتني الكلام وكان الآخر في وأنا جريح منازع
أن لا أطيل معك الحديث ، ومن العجيب أنى قد استرسلت
باظهار حقيقة أنت أدرى بها مني ، وبيان أمور هي أدنى إلى
صالحك منها إلى صاحبها . أما الآن فلنك أن تفعل ما تشاء .
لك أن تحملني على ظهرك وتذهب بي إلى منزلك لتداوى
جراحي ، أو أن تتركني في هذا المكان لأنمازع وأموت .
وكان الشيطان يتكلم والخوري سمعان يرتعش ويفرك يدَّا
بيده ، وبصوت تعانقه الحيرة والارتباك قال : أنا أعرف الآن
ما لم أكن أعرفه منذ ساعة ، فسامح غبافي . أنا أعلم إنك
موجود في العالم لكي تخبرَ ، والتجربة هي مقياس يعرف
الله بواسطته قدر النقوس البشرية . بل هي ميزان يستخدمه
الله عز وجل ليدرك نقل الأرواح أو خفتها . أنا أعلم الآن
أنك إذا مت نموت التجربة وبعوتها تزول تلك القوى المعنية
التي تحمل الإنسان متذمراً ، بل يزول السبب الذي يقود
الناس إلى الصلاة والصوم والعبادة . يجب أن تحيا لأنك إن

قضيت وعرف الناس يزول خوفهم من الجحيم فيبتلون العبادة
ثم يتمرغون بالإثم . من أجل ذلك يجب أن تحيى ، لأن بمحياك
خلاص الجنس البشري من الرذيلة . أما أنا فسوف أضحي
كرهي لك على مذبح حبتي للجنس البشري .

فمضحك الشيطان ضحكة تشبه انفجار بركان ثم قال :
ما أذكاك وما أبرعك يا حضرة الأب ، بل وما أعمق معارفك
بالأمور الالاهوتية ! فها قد أوجدت بقوّة إدراكك سبياً
لوجودي لم أكن أعرفه من قبل . والآن وقد فهم كلّ منا
الأسباب الوضعية والالاهوتية التي أوجدتنا في البدء وتوجدنا
الآن يجب أن نترك هذا المكان . اقترب يا أخي . تعالَ
واحملني إلى بيتك فأنا لست بثقيل الجسم . ها قد غمر الليل
البطاح بعد أن أهرق تنصف دمي على حصاء هذا الوادي .
فاقترب الحوري سمعان من الشيطان وقد شمر عن
ساعديه وشكل أطراف عباءته بحزامه ورفع الشيطان فوق
ظهره ومشي نحو الطريق .

°

بين تلك الأودية المغوردة بالسكون ، المؤساة بنقاب
الليل ، سار الحوري سمعان نحو قريته منحني الظهر تحت
هيكل عاري وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة
بقطرات الدم السائلة من كاومه .

الصلبان

المكان — منزل يوسف مسرا في بيروت .
الزمان — ليلة من ليالي الخريف سنة ١٩٠١ .

الأشخاص

بولس الصلبان — موسيقي وأديب .
يوسف مسرا — كاتب وأديب .
الآنسة هيلانة مسرا — شقيقة يوسف .
سليم معوض — شاعر وعراد .
خليل بك تامر — موظف في الحكومة .

يرفع الستار عن قاعة حسنة في منزل يوسف مسرا مفعمة بالكتب والأوراق . خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة .
الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرا يدخن لفافة .

خليل بك (مخاطباً يوسف مسرا) — قد فرأت اليوم
مقالاتك في الفنون الجميلة وتأثيرها في الأخلاق وقد أعجبتني
كثيراً ، ولو لا صبغتها الأفرنجية ل كانت خيراً ما كتب في
الموضوع . أنا يا مسراً أفتدي من الذين يرون تأثير الآداب
الغربية في لقتنا من الأمور المضرة .

يوسف مسراً (مبتسمًا) — قد يكون الحق معك

يا صديقي ولكن بارتدائك الملابس الافرنجية وبناؤك الطعام
بأنية افرنجية وبخلوتك على مقاعد افرنجية قد عارضت ذاتك
بذاتك ، وفوق كل ذلك أنت أكثر ميلًا إلى مطالعة الكتب
الافرنجية منك إلى مطالعة الكتب العربية .

خليل بك — ليس هذه الأمور السطحية من علاقة بالآداب
والفنون .

يوسف مسرة — نعم هناك علاقة حيوية وضعية . وإذا
تعمقت قليلاً في الموضوع نجد أن الفنون تلازم العادات
والأزياء والتقاليد الدينية والاجتماعية بل تلازم كل مظهر من
ظواهر حياتنا الاجتماعية .

خليل بك — أنا شرقي وسابقى شرفياً إلى آخر حياتي
وقدراً عن بعض مظاهري الأوروبيّة ، فأنا أرجو أن تبقى
الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الأجنبية .

يوسف مسرة — إذاً أنت ترجو موت اللغة والآداب
العربية ؟

خليل بك — وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة — إن الأمم المسنة التي لا تكتسب مما تشره
الأمم الحديثة تموت أدبياً وتندحر معنويًا .

خليل بك — إن كلامك هذا يحتاج إلى برهان .

يوسف مسرة — لدى ألف برهان وبرهان .

« في هذه الدقيقة يدخل بولس الصبان وسلمي معموض
فيقف الحاضرون لهما احتراماً » .

يوسف مسرة - أهلاً وسهلاً بالاخوان « مخاطباً الصبان » .
أهلاً وسهلاً ببلبل سوريا .

« الآنسة هيلانة تنظر إلى الصبان وقد تورّدت وجنتها
قليلًا وظهرت على حيّاتها أمارات السرور » .

سلمي معموض - بالله عليك يا يوسف لا تقل كلمة حسنة
لبولس .

يوسف مسرة - ولماذا ؟

سلمي معموض (بين الجد والمزاح) - لأنّه لا يستحق
التكريم ولا المديح ولا الإطراء ، لأنّه ذو أطوار وأخلاق
غريبة ، لأنّه بجنون .

بولس الصبان (مخاطباً معموض) - هل أحضرتك برفقتي
إلى هذا المنزل لتبيّن عيوبني وتشرح أخلاقي ؟

الآنسة هيلانة - ماذا جرى يا ترى ؟ هل كشفت يا سليم
أنفدي عيوبًا جديدة في أخلاق بولس ؟

سلمي معموض - إن عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت
ويُدفن وتتحول عظامه إلى تراب .

يوسف مسرة - أخبرنا . ماذا جرى ؟ أخبرونا بالحكاية
من أولها إلى آخرها .

سلمي معموض (مخاطباً الصليبان) - هل تسمح لي أن
أتكلم عن جرائمك يا بولس أم تريد أن تعرف أنت بها ؟
بولس الصليبان - أريد أن تبقى صامتاً كالمقبرة ، هاجعاً
كقلب العجوز .

سلمي معموض - إذاً فسوف أتكلم .
الصلبان - يظهر لي أنك تريد أن تنفص عيشي في هذه
السهرة .

سلمي معموض - لا بل أريد أن أعرض قصتك أمام
هؤلاء الأصحاب لينظروا في أمرك .
الآنسة هيلانة (مخاطبة معموض) - تكلم وأسمعنا ما
جرى . « للصلبان » قد تكون الجريمة التي يريد سليم أن يظهرها
إحدى فضائلك .

الصلبان - لم أقترف جريمة كما أنتي لم أفعل فضيلة . أما
المسألة التي يتوق صاحبنا إلى إظهارها فهي لا تستحق الذكر ،
وفوق كل ذلك فأنا لا أريدكم أن تصرفوا السهرة بمديني .
الآنسة هيلانة - حسن . إذاً فلنسمع الخبر !

سلمي معموض (يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة) -
قد سمعت طبعاً يا سادتي بزواج ابن جلال باشا ، وقد عرفت
أن والد العريس قد أقام ليلة أمس حفلة طرب دعا إليها وجاه
المدينة وكبارها (مشيراً إلى بولس) وقد دعا هذا الشرير

ودعيت أنا أيضاً والسبب في ذلك أن الناس يحسبونني ظلة
لبولس اسير حيث يسير وأقوم حيث يقوم ، ولأنه أدامه الله
وأبقاء لا يجب الإنجاد إلا على نقرات عودي . بلغنا منزل
جلال باشا متأخرین وبولسنا كملوك لا يجيء إلا متأخراً ،
فوجدنا هناك الوالي والمطران بل وجدنا هناك الحسناء الفاضلة
والأديب والشاعر والمترى والزعيم . جلسنا بين محاجر البخور
وكتوس الخمر والقوم ينظرون إلى بولس كأنه ملاك هبط
من السماء . أما السيدات فأخذن يقدمن إليه كتوس
الخمر وصحاف النقل وطاقات الأزهار مثلما كانت تفعل نساء
اثينا عند رجوع أحد الأبطال من ساحات الحرب . خلاصة
الكلام أن بولسنا كان في بدء السهرة موضوعاً للتكريم
والاحتفاء ... أخذت عودي وضربت أوّلاً وثانياً وثالثاً ففتح
بولس شفتيه المقدستين وأنشد بيتاً ... بيتاً واحداً من قصيدة
ابن الفارض :

غيري على السلوان قادر وسواي في العشاق غادر
فأصفى القوم وتطاولت أعناقهم كأن الموصلـي قد جاء
من وراء حجب الأبدية ليهمس في آذانهم أنغاماً سحرية علوية .
وبعد ذلك سكت بولس فظنوا الحاضرون أنه سيعود إلى
الإنشاد بعد أن يشرب كأساً أخرى من العرق ، ولكن
بولس ظل ساكتاً .

بولس الصليان (بلهجة جديّة) - أرجوكم أن تقف عند هذا الحد ، فأننا لا أقدر أن أسمع هذا الحديث البليد ، وأنا لا أشك بأن أصحابنا لا يجدون لذة بهذه الثورة الحالية من المعنى .

يوسف مسرا - بحقكم دعنا نسمع البقية .
بولس الصليان (ينهض من مكانه قائلاً) - الظاهر أنكم تفضلون هذا الحديث البارد على وجودي بينكم . اودعكم . الآنسة هيلانة (تنظر إلى بولس نظرة معنوية) - اجلس يا بولس ومهما كان الخبر فتحن معك .

(يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجدد) .
سليم معموض (متابعاً حديثه) - قلت إن بولس المعطر المعظم قد أشد بيته - بيته واحداً من قصيدة ابن الفارض وسكت . أعني بذلك أنه أذاق أولئك الجياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثم رفس المائدة وكسر آنيةها وكؤوسها ثم جلس ساكتاً جلوس أبي المول على رمال النيل .
وقامت السيدات الواحدة بعد الأخرى يستعطفنه بأرق الكلام لينشد أغنية أخرى فكان يعتذر لهن بقوله : أنا مرشح ، أشعر بألم في حنجرتي . ثم قام الوجاه والأغنياء يرجونه ويتدخلون أمامه فلم يحنّ ولم يتلين بل بقي جامداً فاسياً متمتعاً كأن الله قد أبدل قلبه بحجر من الصوان وحوّل الأنعام في نفسه

إلى الفنج والدلال . وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من
الحاضرين حد الألم ناداه جلال باشا إلى غرفة محادية وضع في
جيبي قبضة من الدنانير قائلاً : أنت تستطيع يا بولس أفندي
أن تخت حفلتنا بالسرور أو بالأكدار ، لذلك أرجوك أن
تقبل مني هذه المدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعوري
نحوك ، فلا تخيب آمالي وأمال الحاضرين بك . عند ذلك تعالت
قامة بولس وظهرت لوائح الكبراء على وجهه ورمى بالدنانير
إلى مقعد بجانبه قائلاً بلجة الملوك الفاتحين : أنت تهيني يا جلال
باشا بل أنت تحقرني ، فأنا لم أجئ إلى متراكك لكي أشد
وأغنى وأبيع أنفاسي بالمال ، بل جئت كأحد المهنيين . بعد
هذا فقد جلال باشا صبره وتجده وتلفظ بعض كلمات خشنة
جعلت بولس الحساس يخرج من المنزل لاعناً بجداً . أما أنا ،
أنا المسكين ، فقد تناولت عودي وتبعثر بولس ثار كأ ورائي
الوجه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيبة والمأكل الشهية .
نعم قد ضحيت كل ذلك لكي لا افقد صافة هذا المتصلب
المعنت . قد ضحيت كل ذلك على مذبح هذا البعلم وهو
لآن لم يشكرني ولم يمدح بسالي ولم يعترف بودّي وولائي .
يوسف مسرة (ضاحكاً) - هذه بالحقيقة حكاية لذيدة
حرية أن تكتب بالإبر على آماق البصر !
سليم معرض - لم أصل لآن إلى نهاية الحكاية . أما اللدة

ففي النهاية ، تلك النهاية الشيطانية التي لم يعلم بيتها اهريان الفرس ولا سيفا المفند .

الصلبان (مخاطباً الآنسة هيلانة) - بقيت هنا إكراماً لك ، والآن أرجوك أن تطلبني من هذا الضدق أن يقف عند هذا الحد .

هيلانة - دعه يتكلّم يا بولس ! ومهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً .

سلمي معموض (يشعل لفافة ثانية ويتابع الحديث) - قلت إننا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجده على اسم الأغنياء والوجهاء وأنا أجده على اسمه في سري . وبعد ذلك ... وبعد ذلك هل تظنون أن كلّاً منا ذهب إلى منزله ؟ هل تظنون أن ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعوا وتعجبوا ! تعلمون أن بيت حبيب سعادة محاذٍ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حدائق صغيرة . وأنتم تعلمون أن حبيب سعادة من عشاق المدام والأنقام والأحلام وبمن يبعدون هذا البعلم (مشيراً إلى بولس) . فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقة في منتصف الشارع فاركاً جبهته كأنه قائد عظيم يفكّر بفتح مملكة عاصية ثم مشى فجأة نحو منزل حبيب سعادة وفرع الجرس بشدة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتثاءب ، ولكنه عندما

رأى وجه بولس ورأني حاملاً العود تحت ابطي تغيرت سجنته
 ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت أمامه وصرخ مسروراً
 مؤهلاً قائلاً : ما أتي بكم في هذه الساعة المقدسة ؟ فأجاب
 بولس : قد جئنا لتحفل بعرس ابن جلال باشا في دارك .
 فقال حبيب : هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم إلى هذا
 المنزل الحقير ؟ فأجاب بولس : ليس بداران بيت الباشا آذان
 تسمع رنات العود والآنسيد . من أجل ذلك جئنا إليك
 فهات قنينة العرق وصحفة المازه ولا تطل الكلام . الخلاصة
 جلسنا حول مايدة الشراب ولم يتناول بولس كأساً أو كأسين
 من العرق حتى قام وفتح النوافذ التي تطل على حدبة الباشا
 ثم ناولني العود وقال أمراً : هذه عصاك يا موسى فهو لها إلى
 أفعى ومرها أن تتبع جميع أفاعي مصر . اضرب النهاوند
 واضرب طويلاً واضرب جميلاً . فتناولت العود وليس على
 العبد إلا الطاعة وضربت النهاوند فحوّل بولس وجهه نحو
 منزل جلال باشا وأخذ ينشد بصوت عال ...

هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيم المزاح عن وجهه
 ويقول بلهجة هادئة جديدة :

أنا أعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . أعرفه منذ كنا
 صبيين في المدرسة . ولقد سمعته منشداً في حالي الفرح والشقاء .
 سمعته ينوح كالثكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر . سمعته

يمس في سكينة الليل وقد نامت هذه المدينة وسكانها . وسمعته
بين أودية لبنان وأجراس الكنائس البعيدة يلأ الفضاء سحراً
وهيبة . نعم لقد سمعته منشداً ألف مرة ومرة و كنت أتوهم
أنني أعرف حركات روحه وسكناتها . ولكنني في ليلة أمس
لا حوصل وجهه نحو منزل جلال باشا وأغمض عينيه وأنشد :

كل يوم أشكو من غرام قلبي وكلما أشكو يزيد الغرام

عندما أنشد هذا الدور متلاعياً بقاطعه مثلاً يتلاعب الهواء
بأوراق الخريف قلت في نفسي : لا ، ما عرفت في الماضي
من روح بولس إلا القشور ، أما الآن فقد بلغت الباب . لم
أسمع في الماضي غير لسان بولس منشداً أما الآن فإني أسمع
قلبه وروحه ... وظل بولس يلاحق الدور بالدور ويتردج
من نشيد إلى نشيد حتى خيّل لي أن في الفضاء طغمة من
أرواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مرددة تذكارات
الماضي البعيد ، ناثرة ما طوته الليالي من أمنيات البشر وأحلامهم .
نعم يا سادي (مسيراً إلى بولس) إن هذا الرجل قد صعد ليلة
أمس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ، ومن العجائب أنه
لم يحيط على الأرض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع أعداءه
تحت موطئ قدميه كما جاء في المزامير ! أما ضيف جلال
باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعادة حتى

ترأهيموا في النواخذة وجلسوا نساء ورجالاً يتاؤهون بعد كل
مقطع وكل نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم إلى الحديقة
ووقفوا تحت الأشجار معتبرين متعددين مصغرين محذارين في أمر
هذا البعلم الذي ينكحهم ويدينهم وفي الوقت نفسه يلأ قلوبهم
بخمرة علوية ، وقد كان البعض ينادي مستعطفاً متوجهاً
والبعض متوعداً بجدها . وقد علمت من أحد المدعون أن
جلال باشا كان يزور كالأسد متقللاً من غرفة إلى غرفة لاعنا
الصلبان غاضباً على ضيوفه خصوصاً على أولئك الذين خرجنوا
إلى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازه بأيديهم .
هذا ما جرى ليلة أمس ، فما قولكم في هذا النابغة المجنون ؟
وما رأيكم بآطوار هذا الرجل وأخلاقه الغريبة ؟

خليل بك - هذه حادثة عجيبة . أما رأيي فيها فهو هذا :
أنا من المعجبين بواهب بولس افendi ، ومع كل احترامي له
أقول إنه قد أخطأ ليلة أمس ، فقد كان بإمكانه أن ينشد في
بيت جلال باشا كما أنشد في بيت حبيب سعادة ويقابل استعطاف
ال القوم بشيء من فنه . (مخاطباً يوسف مسرة) ما رأيك
يا يوسف افendi ؟

يوسف مسرة - أنا لا ألوم الصليان كما أني لا أحارو
فهم أمراره وخفاءيه لعلمي أن المسألة شخصية تتعلق به دون
سواء ولعلمي أن أخلاق الفنانين خصوصاً الموسيقيين منهم مختلف

عن أخلاق الناس كافة . وليس من الصواب أو العدالة أن تقيس أعمالهم وما تبيهم على المقاييس التي نستخدمها لإدراك أعمال غيرهم . إن الفن - وأعني بالفن ذلك المبدع الذي يخلق لأفكاره وعواطفه صوراً جديدة - هو رجل غريب بين أهله وخلانه وغريب في وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفن يعيش شرقاً عندما يعيش الناس غرباً ، ويتأثر لعوامل باطنية لا يستطيع هو نفسه أن يسيطرها ، فهو تعس بين الفرحين فرح بين النساء . ضعيف بين القادرين قادر بين الضعفاء . الفن فوق الشريعة رضي الناس أم غضبو .

خليل بك - إن كلامك هذا يا يوسف افتدي لا يختلف معانيه ومفاده عما جاء في مقالتك عن الفنون الجميلة ، واسمح لي أن أقول ثانية إن الروح الغربية ، الروح الافرنجية التي تكرز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كامة . يوسف مسراً - هل تحسب ما فعله بولس افتدي ليلة أمس مظراً للروح الافرنجية التي تنكرها وتكرهها ؟

خليل بك - إني أستغرب ما فعله بولس افتدي . أقول ذلك مع الاحترام لشخصه .

يوسف مسراً - أو ليس للصلبان قام الحرية أن يفعل بصوته وفنه ما يشاء ومني يشاء ؟

خليل بك - نعم له قام الحرية أن يفعل ما يشاء ولكنني

أرى أن حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية .
إن ميولنا وعاداتنا وتقاليدنا لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل
ما فعله بولس أفتدي ليلة أمس دون أن يضع نفسه في
موقف حرج .

الآنسة هيلانة — هذه مناظرة لذيدة ومفيدة . ولكن بما
أن السبب في هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع
أن يدافع عن نفسه بنفسه .

بولس الصلبان (بعد سكوت طويل) — كنت أتمنى لو لم
يفتح سليم هذا الحديث . بل كنت أود أن يزول ما جرى
ليلة أمس مع ليلة أمس . ولكن بما أني في مركز حرج
كما يقول حضرة البك فانا لا أرى بدأ من إظهار أفكاري
في هذا الموضوع . أنت تعلمون وأنا أعلم أيضاً أن أكثر من
يعرفني ينتقدني . هذا يقول إني مفجح وذلك إني أعوج .
وهنالك فئة تقول إني لئيم وليس للئيم كرامة . وما هو السبب
يا ترى في هذه الانتقادات الجارحة ؟ إن السبب في أخلاقي .
نعم في أخلاقي التي لا أقدر أن أغيرها ولو قدرت لما أردت .
ولماذا يا ترى يهم الناس بي وبأخلاقي ؟ أليس بإمكانهم أن
يتناسوا كياني ؟ في هذه المدينة كثير من المغنين والمنشدين
والموسيقيين وكثير من الشعراء والمقرظين وكثير من المبخرین
والشحاذين الذين يبيعون أصواتهم وأفكارهم وعواطفهم بل

ويبيعون نفوسهم بدينار أو بعلقة أو بقنية من الحمر . وقد عرف أغنياؤنا ووجهاؤنا هذا السر ، لذلك نراهم يتعاونون أبناء الفن والأدب ب بنفس الأغان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم وركباتهم في الساحات والطرق . نعم أنها السادة إن المغنين والشعراء في الشرق هم حملة المباخر بل هم العبيد ، وقد فرض عليهم أن ينشدوا في الأعراس ويترغوا في الحفلات ويندبو في المآتم ويرثوا في المقابر . هم الآلات التي تدار في أيام الحزن وليلات الافراح ، فإذا لم يكن من داعٍ للحزن أو الفرح طرحوها جانباً كأنهم سلع لا قيمة لها . وأنا لا ألوم الوجاه والأغنياء بل ألوم المغنين والشعراء والأدباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضنون باء وجوههم . ألمهم لأنهم لا يترفعون عن الصغار والتواه . ألمهم لأنهم لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل .

خليل بك (متهيجاً) - إن القوم كانوا يستعطفونك ليلة أمس ويحاولون بكل وسيلة لدفهم أن يسترضوك لتتكرم عليهم بأغنية أو نشيد . فهل تخسب إنشادك في بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع والتذلل ؟

بواس الصليان - لو استطعت الإنشاد في منزل جلال باشا لفعلت . ولكنني نظرت حولي فلم أجده بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا يسمعون من الأصوات إلا رنات الدنانير ،

والوجهاء الذين لا يفهمون من الحياة إلا ما يرفعهم ويختنق
 سوادهم . نظرت حولي فلم أجده من يميز التهاوند عن الرصد أو
 العشاق عن الأصفهان ، لذلك لم استطع أن أفتح صدري أمام
 العينان أو أعرض أمرار قلبي أمام الطرشان . إنما الموسيقى
 لغة الأرواح . هي سائل خفي يتموج بين روح المنشد
 وأرواح السامعين ، فإذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتقهم
 ما تسمع فالمنشد يفقد ذلك الميل إلى البيان ويفقد ذلك الشوق
 إلى إظهار ما في أعماقه من الحركات والسكنات . والموسيقى
 مثل قيثارة ذات أوتار مشدودة حساسة فإذا تراحت تلك
 الأوتار فقدت خاصتها وأصبحت كخيوط من الكتان .
 (يقف ويسير بضع خطوات ثم يقول بيته) - لقد تراحت
 أوتار روحي في منزل جلال باشا عندما تفرست في الحاضرين
 نساء ورجالاً ولم أرَ بينهم غير المتكلف والمتصنة والمتقدّم
 والبلهيدة والعقيم والمعجّرة . أما استعطافهم إليّ فلم يكن ناجحاً
 إلا عن تعنيي وسكوني . ولو كنت كالكثيرين من ضفادع
 المنشدين لما أهتم أحد بي .

خليل بك (يقاطعه مداعباً) - وبعد ذلك ذهبت إلى منزل
 حبيب معايدة . وللنكاية - وللنكاية فقط - جلست منشداً
 حتى الصباح !

بولس الصليان - جلست منشداً حتى الصباح لأنّي أردت أن

أفرغ مكنونات قلبي . لأنني أردت أن ألقى حملًا ثقيلاً عن
 عانقي . لأنني أردت أن أعاتب الليل والحياة والدهر . لأنني
 شعرت بحاجة ماسة إلى شد تلك الأوتار التي تراخت في منزل
 الباسا . أما إذا كنت تظن يا خليل بك أنني أردت النكابة
 فذلك الحق بأن نفكك بما تريده . إن الفن طائر حر يسبح
 حلقاً عندما يشاء ويحيط إلى الأرض عندما يشاء ، وليس من
 قوته في هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره . الفن روح سامي
 لا يباع ولا يشرى ، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة
 المطلقة . أما الفنيون بيننا - وهم أندر من الكبريت الأحمر -
 فعليهم أن يكرموا نفوسهم لأنها الإناء الذي يلاه الله خمرة
 علوية .

يوسف مسرا - إني متყق معك يا بولس . ولقد أبنت
 أفكاري في هذا الموضوع بصورة لا أستطيع أنا إظهارها .
 أنت ابن الفن أما أنا فباحث بالفنون ، والفرق بيننا هو
 كالفرق الكائن بين العنبر الحامض والخمرة المعتقة .
 سليم معرض - الصلبان يتكلم مثلما ينشد وليس على سامعيه
 إلا الاقتناع والإذعان .

خليل بك - لم أقتنع بعد ولن أقتنع . وما فلسفتكم هذه
 إلا إحدى تلك العلل المتسربة إلينا من بلاد الأفرنج .
 يوسف مسرا - لو سمعت الصلبان منشداً يا حضرة البك

لاقتنعت ونسبت الفلسفة .

في هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتحاطب الآنسة هيلانة :
— يا معلمي قد جاءت الكناقة من الفرن فوضعتها على المائدة .
يوسف مسرة « ينتصب مخاطباً الجميع » — تفضلوا أرجوا
الإخوان فقد هيأنا لكم أكلة لذيدة ، لذيدة جداً ، وتكون
نكون صلبانية بنكتها وحلواتها !

(يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة وخليل بك وسلمي
معوض ، أما الصلبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين في
وسط القاعة وكل يحدق إلى وجه الآخر وفي عينيهما أشعة
لا توصف) .

هيلانة (هامسة) — هل علمت اني كنت مصغية إليك
ليلة أمس ؟

الصلبان (مستغرباً) — ماذا تعنين يا هيلانة قلبي ؟
هيلانة (بخجل ووجل) — كنت أمس في بيت شقيقتي
مريم . ذهبت لأنام عندها لأن زوجها متغيب وهي تحاف
وحدها .

الصلبان — أوَيْت صهرك على طريق الحرج ؟
هيلانة — ولا يفصله عن بيت حبيب سعادة غير زفاف
ضيق .

الصلبان — وهل سمعتني منشدأ ؟

هيلانة — سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر .
سمعتك حتى سمعت الله متكلماً .
(يسمع صوت يوسف مسره آتياً من الغرفة المحادية
فائلأ :)

« تفضل يا بولس فقد بردت الكنافة » .
(يخرج بولس وهيلانة . الستار !)

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد .

جلس الأمير على عرشه الذهبي ، المحاط بالمسارج المشتعلة
والمبادر المثقدة ، فيجلس القواد والكهان عن يمينه وشماله ،
ووقف الجنود والعبيد أمامه وقفوا الانصاب أمام وجهه
الشمس .

بعد هنئة وقد انتهى المرتلون من انشادهم ، وتواترت
أنفاسهم بين طيات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام
الأمير وقال بصوت تهدج بهجة ضالة الشيخوخة :
— أيها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من
حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع
قط بثلها ، فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح من
جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل حتى تبلغ
الكمال ، وتصير إلى مصف الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً
الدخول عليك ليسط تعاليمه أمامك .

فهز الأمير رأسه وقال مبتسمًا :

— من بلاد الهند تأني الفرائب والعجبائب فادخلوه لنسمع

حجته .

ولم تمر دقيقة حتى دخل كهل أسر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبارتين ، وملامح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة وميول غريبة ، وبعد أن اخنى مستاذناً رفع رأسه وتلمعت عيناه وطفق يتكلّم عن بدعته مظہراً كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرقية بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرجة بتأنيرات الأمور التي تختبرها ، متباينة مع الأمجاد التي ترفعها وتقوّيها ، نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها ... ثم نظر إلى كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان باحثة عما تحتاج إليه من الكماليات مكفرة في حاضرها عن ذنوب افترفتها في ماضيها مستغلة في بلد ما زرعته في بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الأمير سيماء الملل والضجر اقترب كبير الوزراء من الحكم وهو في أذنه فائلاً : كفى الآن فدعا البحث إلى فرصة ثانية .

فتراجع الحكم إلى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً أجنفاته كأن عينيه قد تعبيتا من التحديق إلى خفايا الوجود وأسراره . وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الأنبياء تلقت الأمير إلى اليمين

وإلى اليسار ثم سأله قائلًا : أين شاعرنا ؟ فقد مرّ زمان ولم
نره . . . ماذا حل به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟
فقال أحد الكهان : قد رأيته منذ أسبوع جالساً في
رواق هيكيل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كثيبتين
نحو الشفق البعيد كأنه أضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده .
وقال أحد القواد : قد رأيته بالأمس واقفاً بين أشجار
السرور والصفصاف فحياته ولم يرد التحية بل ظل غارقاً في بحر
أفكاره وأحلامه .

وقال رئيس الخصيان : قد رأيته اليوم في حديقة القصر
فدنوت منه فوجده أصفر اللون ، مصاحب الوجه ، تراود
الدموع أجفانه وتتلاءب الفصّات بأنفاسه .
قال الأمير بصوت تلاحمه الملفة : اذهبوا وابحثوا عنه
وعودوا به مسرعين فقد شغل بالنا أمره .

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر وظلّ الأمير
وأعوانه صامتين حاثرين متربقين كأن نقوسهم قد شعرت
بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة .
وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتى على قدمي الأمير
كطائر رماه الصياد بهم . فصرخ به الأمير قائلًا : ما الخبر . . .
ماذا جرى ؟

فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً : قد وجدنا الشاعر ميتاً

في حديقة القصر . فانتصب الأمير وقد علت سحنته سماء
الحزن والكمد ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج
ويتبعه القواد والكهان . ولما بلعوا أطراف الحديقة حيث
أشجار اللوز والرمان جلت لهم أشعة السرج الصفراء جمة
هامدة مرقمة على الأعشاب كفنون ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان : انظروا كيف عائق قيثارته كأنها
صبة حسناً أحبتها وأحبته فتعاهدا على أن يوتا معاً .

وقال أحد القواد : لم يزل يحدق إلى أعماق الفضاء كعادته
كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف .

وقال رئيس الكهان مخاطباً الأمير : غداً نتبره في ظلال
هيكل عثروت المقدسة ، فيسير سكان المدينة وراء نعشة ،
وبينشد الفنان قصائده وتنتثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد
كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدقنه عظيماً .

فهزَّ الأمير رأسه دون أن يحوِّل عينيه عن وجه الشاعر
المتشع بنقاب الموت ، ثم قال ببطء : لا . لا . لقد أهملناه
إذ كان حياً يلأ جوانب البلاد من أشباح نفسه ويعطر الفضاء
بأنفاسه ، فإذا ما أكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلة وتضحك منا
عرايس المروج والأودية . ادفنوه هنا حيث فاضت روحه
وابقوا قيثارته بين ذراعيه . وإن كان بينكم من يريد أن
يكرمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأنَّ الأمير قد أهمل

شاعره فمات كثيراً وحيداً منفداً .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً : أين الفيلسوف الهندي ؟

فتقىم الفيلسوف وقال : ها أنذا أياها الأمير العظيم .

فقال الأمير : قل - قل أيا الحكيم - هل ترجعني الآلة
أميرآ إلى هذا العالم وتعيده شاعراً ؟ هل تلبس روحي جسد
ابن مليك عظيم ، وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير ؟ هل
توقفه التواميس ثانية أمام وجه الأبدية لينظم الحياة شعراً
وتعيدهني لأنعم عليه وأفرح قلبه بالهبات والعطايا ؟

فأجاب الفيلسوف قائلاً : كل ما تنشقه الأرواح تبلغه
الأرواح ، فالناموس الذي يعيده بمحجة الربيع بعد انقضاء الشتاء
سيعيدهك أميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً .

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ثم مشى نحو قصره
مفكراً في أقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله : كل ما
تنشقه الأرواح تبلغه الأرواح .

٢

في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد .

طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة ، وأمير البلاد
جالس في شرفة قصره ، ينظر إلى الفضاء الصافي ، مفكراً يتأتي

الأجيال التي مررت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً
أعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا أمام هيبة أبي المول ،
مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التي سيرها الدهر من
جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره ، وانبسطت مسارح أحلامه ،
الفت نحو نديم الجالس بقربه وقال : في نفسها الليلة ميل إلى
الشعر فأنشدنا شيئاً منه .

فعن النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي فقاطعه
الأمير قائلاً : أنشدنا شعراً أحدث عهداً .

فأنخرنـى النديم ثانية وابتداً يردد أبياتاً لأحد الشعراء
المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال : أحدث عهداً ... أحدث عهداً .
فأنخرنـى النديم للمرة الثالثة وأخذ يتربّم بمقاطعه موشح
اندسي .

فقال الأمير : أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر .

فرفع النديم يده إلى جبهته كأنه يريد أن يستحضر إلى
حافظته كل ما نظمه شعراء العصر ، ثم برقت عيناه وتهلل وجهه ،
وطفق يرتل أبياتاً خيالية ذات رنة سحرية ، ومعانٍ وقيقة
مبتكرة ، وكتابات لطيفة نادرة تجاوزت النفس فتملاها شعاعاً
وتحيط بالقلب فتذيه انعطافاً .

فحدق الأمير إلى نديه ، وقد استهواه نغمة الأبيات
و معانيها . وشعر بوجود أيدي خفية تجذبه من ذلك المكان إلى
مكان قصي . ثم سأله قائلًا : من هذه الأبيات ؟
فأجاب النديم : للشاعر البعلبكي .

الشاعر البعلبكي ! كلمتان غريبتان توجتا في مسامع الأمير
ولدتتا في داخل روحه النبيلة أشباح ميول ملتقبة بوضوحها
قوية بدقها .

الشاعر البعلبكي اسم قديم جديد ، أعاد إلى نفس الأمير
رسوم أيام منسية وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكريات
هابجة ، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة
فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القواد والكهان
والوزراء .

واحث هذه الروايا أمام عيني الأمير مثلما توارى الأحلام
بجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره ،
مردداً آية النبي العربي : وكتم أمواتاً فأحياكم ثم عيتكم ثم
يحييكم ثم وإله ترجعون .

ثم التفت نحو نديه قائلًا : يسرا وجود الشاعر البعلبكي في
بلادنا وسوف تقربه ونكرمه . وبعد دقيقة زاد بصوت
منخفض : إنما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه
العلوية ويجيء هذا العالم مغرداً ، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه

ويعد طازأً إلى مواطنه .

وأنقضى الليل فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم
ولبس قميصه المنسوج من أشعة الصباح ، ونفس أمير
البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبها ، وخفايا الحياة
وأسرارها .

السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية اجتمع سكان قرية تولا حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائي إلى مكان قصي لا يعلم به غير الله تاركًا عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر.

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجده . ومع انه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوحي بالاحترام والوقار في قلوب مواطنه . وعندما افtern في أواسط الريبع الغابر بسمان برؤسات قال الناس : ما أسعده فتى ! فهو قد حصل قبل أن يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الانسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا وقيل لهم ان الشيـخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسبياً أو صديقاً ، تعاظمت ظروفهم وأخذوا يتساءلون عن الأسباب الحقيقة التي جعلته يتركهم

ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرمه .
ان الحياة في شمال لبنان أقرب إلى الاستراكية منها إلى
كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهون بأفراح الوجود
وشنادئه مدفوعين بميل فطرية وضعية . فإذا ما جاءت الأيام
بحادث إلى قرية ينصرف سكانها بكلتهم إلى استقصاء ذلك الحادث
حتى تجيء الأيام إليهم بأمر آخر .

تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية
فاجتمعوا حول كنيسة مار تولا يتحدثون ويتسائلون ويتبادلون
الآراء بسفر فارس الرحال .

وبينا هم على هذه الحالة إذا بالحوري اسطفان كاهن القرية
يقترب منهم منحي الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطاعين ،
فظل "ساكتاً يفرك يداً بيده ، وبعد هنئه قال :
لا تسألوني . لا تسألوني . كل ما أعرفه يا أبني هو هذا :
قوع فارس بباب منزلي قبل طلوع الفجر . ولما فتحت له وجدته
متمسكاً بقود فرسه وعلى وجهه امارات الحزن الشديد .
فسألته مستغرباً عما يزيد فقال : جئت لأودعك يا أبي ، فأنا
مسافر إلى ما وراء البحار ولن أعود إلى هذه البلاد وأنا حي .
ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب
إليه أن أسلّمها إليه يداً بيده . فعل هذا واعتلى فرسه وراح
مسرعاً قبل أن تستوضح أمره . هذا كل ما أعرفه . فلا

تسألوني الزيادة .

فقال أحد الواقفين :

لا شك ان في الرسالة ما ينبعنا عن سبب سفره لأن نجيب
مالك كان أعز صديق له في القرية .

وقال آخر :

وهل رأيت عروسته يا أبنته ؟

فأجاب الكاهن :

قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدهما جالسة بقرب النافذة
تنظر إلى البعيد بعينين زجاجيتين كأنهما فقدتا ادراكيها ، ولما
سألتها هزت رأسها وقالت : لا أدرى . لا أدرى . ثم طفت
تبكي وتنتحب كالأطفال .

ولم ينته الكاهن من كلامه إلا وذعر القوم حوله لطلق
بندية جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صرائح
امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء ، فبهرت القردابون دقيقة
ثم تراكموا نساء ورجالاً وعلى وجه كل واحد منهم برقع من
الخوف والتشاؤم . ولا بلغوا البستان الذي يحيط بمنزل فارس
الرحال شاهدوا هنالك منظراً اجمد الدم في عروقهم وال فكرة
في رؤوسهم . رأوا نجيب مالك منظر حاً على التراب والنجع
يتدفق من امعانه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس
الرحال تنبش شعرها وتفرق ثوابها وتصرخ متوجعة : قد قتل

نفسه . قد أطلق البن دقية في صدره .

فبها القوم كأن أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريح وجد في عينيه الرسالة التي كان قد سلمه إياها في ذلك الصباح ، وقد قبض عليها بشدة كأنه يريد أن يجعلها جزءاً من أصابعه ، فتناولها الكاهن ووضعها في جيبه دون أن يراه أحد ثم تراجع إلى الوراء لاطمئناً وجهه .

وتحمل القوم جثة المتنحر إلى بيت والدته المسكينة التي لم ترَ جثة وحيداً حتى فقدت عقلها .

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الراحال فاقتدينا إلى منزلها بين حية ومية .

ولما بلغ الخوري اسطfan منزله أوصى الباب ووضع النظارات على عينيه منتشرأ الرسالة التي وجدتها في يد نجيب مالك ، وبصوت مرتعش أخذ يقرأ :

أخي نجيب ،

أنا تارك هذه القرية لأن وجودي فيها يجلب التعasse لك ولزوجتي ولـي أيضاً . أنا أعلم أنك شريف النفس تتعرف عن خيانة صديقك وجارك . وأعلم أن زوجتي سوسان طاهرة الذيل ، ولكنني أعلم في الوقت نفسه أن الحب الذي يضم قلبك إلى

قلبها هو أمر فوق إرادتكما ، فأنت لا تستطيع إزالتها كما
 انك لا تقدر ان توقف مجري نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً
 لي يا نجيب مذ كنا صبيين نلعب في الحقول وفي ساحة الكنيسة .
 وأنت لم تزل صديقي أمام الله ، وأرجوك أن تفكري في في
 المستقبل مثلما كنت تفكري في في الماضي ، وإذا التقى سوسان
 غداً أو بعده فقل لها اني أحبها وأرحبها . وقل لها أيضاً اني
 كنت أذوب شفقة عندما كنت أستيقظ في سكينة الليل
 وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكي وتتنحّب وتجلد صدرها .
 ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل
 يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت في حرب دائمة .
 كانت تريد ان تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة
 على قتل عواطفها . اما أنا فمسافر إلى مكان بعيد ولن أعود
 الى هذه الديار لأنني لا اريد أن أكون حجر عثرة في سبيل
 سعادتكما . وفي الختام أرجوك يا أخي ان تبقى مخلصاً
 لسوسان وان تحافظ عليها حتى النهاية لأنها قد ضحت كل شيء
 من أجلك . فهي تستحق كل ما يستطيع الرجل ان يقدمه
 للمرأة . ابق يا نجيب كما عهدتكم شريف القلب كبير النفس
 والله يحفظك لأخيك

فارس الحال

ولما انتهى الخوري اسطfan من قراءة الرسالة طواها

وأعادها إلى جيئه وجلس بقرب النافذة ينظر إلى الوادي البعيد وعلى وجهه المتبععد امارات التفكير العميق .

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا أفكاره سرّاً دقيقاً هائلاً محظوباً بالظواهر ملتفاً بالسطحيات . فهتف صارخاً: ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال ، فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت إليه بالسم بمزوجاً بالعسل . قد بعثت إليه بالسيف ملتفاً بالطريق . قد بعثت إليه بالموت طي الرسالة . فعندما صوب بندقته إلى صدره كانت يدك قابضة على يده وإرادتك محطة بإرادته . . . اواه ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال !

وعاد الخوري استيفان فجلس على المهد هاززاً رأسه بمشطاً لحيته بأصابعه مبتسمًا ابتسامات ذات معانٍ أشد هولاً من المأساة ، وبعد هنيئة تناول كتاباً من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس افرام السرياني وهو يرفع عينيه بين الآونة والآخرى ليسمع صراغ النساء آتياً من قلب القرية .

ما وراء الرداء

عندما اتصف الليل فتحت راحيل عينها وحدقت هنيهة
إلى سقف الغرفة ثم أغضبتهما وتنهدت تنهدة عميقه متقطعة ،
وبصوت يكاد يكون لهاً قالـت :

ها قد بلغ الصباح أطراف الوادي ، فلنذهب إلى لقائه .
فاقترب إذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدها
باردة كالثلج ، ثم وضع أصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكناً
كالدهور ، فحن رأسه وارتعدت شفتيه كأنه يريد أن يلحظ
كلمة علوية ترددت أشباح الليل في تلك الأودية القاصية الخالية .
ثم صلب ذراعيها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس في
قرنة مظلمة من تلك الغرفة وقال بصوت ملؤه الشفقة
والانعطاف : قد ذهبت زوجتك إلى لقاء ربه . فقم يا أخي
واركع بجانبي لنصلـي .

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه وسُبرت عيناه كأنه
رأى في فضاء الغرفة ظل إله غير معروف . ثم وقف بهدوء
وتقىـم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلـياً ،
منتـجباً ، راسـماً بين الآونة والآخرى إشارة الصليب على

وجهه وصدره .

وانتصب الكاهن واعضاً يده على كتف الرجل قائلاً :
قم يا أخي ! تعال إلى الغرفة الثانية . فأنت بحاجة إلى
النوم والراحة . فلم يبدِ الرجل معارضته ، بل وقف وسار
إلى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق يمتدّ جسده
شأن من ينهكه المهم والسهر والانتظار .
ولم تمر بضع دقائق حتى غلب النوم أجنفانه فرقده كطفل
بين ذراعي أمه .

أما الكاهن فظل متتصباً كالتمثال في وسط تلك الغرفة ينظر
بعينين غارقين بالدموع نحو جنة الصبية الباردة ويلتفت كل دقيقة
نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية .
ومرت ساعة أطول من الدهر وأشد هو لأن الموت والkahen
واقف بين رجل وامرأة راقددين — رجل راقد رقود حقل محلم
يعجِّي الربيع ، وامرأة راقدة مع الأزمنة الغابرة تحلم أحلام الأبدية .
حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثنا أمامها كما
يجثو أمام المذبح ، ثم أخذ يدها الباردة ووضعها على شفتيه
المترجفتين ونظر إلى وجهها المتشعّب بنقاب الموت ، وبصوت
هادئ كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال :
يا راحيل ، يا راحيل ، يا اخت روحي ، اسمعني

يا راحيل فأنا أستطيع الآن الكلام . قد فتح الموت شفتيَ
لأبوج لك بسر أعمق من الموت ، واطلق الألم لساني لا كشف
للك أمرًا أشد من الألم . اسعي صراغ روحي أيتها الروح
المرفقة بين الأرض والنهاية . اسعي الشاب الذي كان
يراك راجعة من الحقل فيتنحى متحججاً بين الأشجار خائفاً من
جمال وجهك . اسعي الكاهن الذي يخدم الله فهو يناديكِ
الآن بلا وجل لأنك بلغت مدينة الله .

همس هذه الألفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبنتها وقبل عينيها
و قبل عنقها — قيلات طويلة حارة ، خرساء ، علوية تبين ما في
نفسه من أسرار الحب والألم .

ثم تراجع فجأة إلى الوراء وارتفى على الأرض مرتعشاً كأوراق
الخريف كأن ملامسة وجه المرأة المتلاجة قد أيقظت في داخله
عاطفة الندم ، ثم انتصب جائياً ساتراً وجهه بيديه قائلًا في سره:
اغفر ذنبي يا رب ! سامح ضعفي يا إلهي ! فأنا لم أجحد حتى
النهاية . فالسر الذي أخفته الحياة في قلبي سبعة أعوام قد أباشه
الموت بدقة واحدة . اغفر لي يا رب . سامح ضعفي يا إلهي ...
وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجمع ويميل برأسه ذات
اليمين وذات اليسار ولا ينظر إلى جنة الصبية خائفاً على نفسه
من خفايا نفسه حتى جاء الصباح وألقى وشاحه الوردي على تلك
الرسوم المهولية التي تمثل الحب والدين والحياة والموت .

البنفسجة الطموح

كان في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثناء، طيبة العرف،
تعيش قانعة بين أتراها وتغایل فرحة بين قامات الأعشاب .
ففي صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها
ونظرت حولها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء
ورأس يتسامي متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة
من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهدة : ما أقل
حظي بين الرياحين ، وما اوضع مقامي بين الأزهار ! فقد
ابتدعني الطبيعة صغيرة ، حقيقة ، أعيش ملتصقة بأديم الأرض
ولا أستطيع أن أرفع قamenti نحو ازرقاق السماء أو أحول
وجهي نحو الشمس مثلاً تفعل الورود .

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة
ثم قالت : ما أغباك بين الأزهار ! فأنت في نعمة تمجهلين
قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال
ما لم تبهه لكثير من الرياحين . فخلطي عنك هذه الميلول
العواجا والأمان في الشريرة وكوني قنوعاً بما قسم لك وأعلمي

ان من خض جناحه رفع قدره ، وان من طلب المزيد وقع
في النCHAN .

فأجابت البنفسجية قائلة : أنت تعزيني أيتها الوردة لأنك
حاصلة على ما أتتاه ، وتغمرن حقارتي بالحكم ، لأنك عظيمة .
وما أمر " مواعظ السعداء في قلوب التاعسين وما أقسى القوي
إذا وقف خطيباً بين الضعفاء !

°

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجية فاهتزت
مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة :

ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجية ؟ فقد عرفتك لطيفة
بتواضعك عذبة بصغرك شريفة بمسكتك ، فهل استهونتك
المطامع القبيحة ، أم سلبت عقلك العظمة الفارعة ؟

فأجابت البنفسجية بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف :
أيتها الأم العظيمة بمحروتها ، المائلة بمحانها ، اضرع اليك
بكل ما في قلبي من التوسل ، وما في روحي من الرجاء ،
ان تجيئي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً .

فقالت الطبيعة : انت لا تدررين ما تتطلبين ولا تعلمين
ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية ، فإذا رفعت قامتك
وبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمدين حين لا ينفع الندم .
فقالت البنفسجية : هوّ لي كياني البنفسجي إلى وردة مديدة

القامة مرفوعة الرأس . ومهما يحل بي بعد ذلك يكن صنع
رغائي ومطامعي .

فقالت الطبيعة : لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة
المتمردة ، ولكن إذا دهمتك المصائب والمصاعب فلتكن
مشكوكاً من نفسك .

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولست عروق
البنفسجة فتحولت بلحظة إلى وردة زاهية متعلقة فوق الأزهار
والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيموم سوداء مبطنة
بإعصار ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت ورعدت وأخذت
تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرم من الأمطار
والأهوية ، فكسرت الأغصان ولوت الأنصالب واقتلت
الأزهار المتشائكة ولم تبقى إلا على الرياحين الصغيرة التي تلتقص
 بالأرض أو تختبئ بين الصخور .

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما
لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيموم حتى أصبحت أزهارها هباء
منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة
البنفسج المختبئة بجدار الحديقة .

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأيت ما حلّ بأزهار

الحدائق وأشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلة : الا
فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشائحة تيهًا وعجباً .

وقالت بنفسجة أخرى : نحن نلتتصق بالتراب ، ولكننا
نسلم من غضب العاصف والأمواه .

وقالت بنفسجة ثالثة : نحن حقيرات الأجسام غير ان
الزوايا لا تستطيع التغلب علينا .

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأة على مقربة
منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة
وبعثرت أوراقها الرياح وألقتها على الأعشاب المبللة فباتت
كقتيلاً أرداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومددت أوراقها ونادت
رفيقاتها قائلة : تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن إلى البنفسجة
التي غرتها المطامع فتحولت إلى وردة لتشامخ ساعة ثم هبطت
إلى الحوض . ليكن هذا المشهد أمثلة لكنْ .

عندئذ ارتعشت الوردة المحترقة واستجمعت قواها
الخائرة وبصوت متقطع قالت :

ألا فاسمعن أيتها الجاهلات القانعات ، الخائفات من العاصف
والأعاصير . لقد كنت بالأمس مثلكن "أجلس بين أوراقي
الحضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً
منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة وأهويتها ويجعل كياني محدوداً

بما فيه من السلامه ، متناهياً بما يساوره من الراحة والطمأنينة .
ولقد كان بإمكاني ان أعيش نظير كن ملتصقة بالتراب حتى
يغمرني الشتاء بتلوحه واذهب كمن ذهب قليلى سكينة الموت
والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخآته غير ما عرفته
طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الأرض . لقد كان
بإمكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الأمور التي تعلو
بطبيعتها عن طبيعتي . ولكنني أصفيت في سكينة الليل فسمعت
العالم الأعلى يقول لهذا العالم : « إنما القصد من الوجود الطموح
إلى ما وراء الوجود . » فتمرت نفسي على نفسي وهام وجداً في
بُقَام يعلو عن وجدي ، وما زلت أفترد على ذاتي وأتشوق إلى
ما ليس لي حتى اتقلب تردي إلى قوة فعالة واستحال شوق
إلى إرادة مبدعة فطلبت إلى الطبيعة - وما الطبيعة سوى
ظاهر خارجية لأحلامنا الخفية - ان تخولني إلى وردة فعلت ،
وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق .
وسكتت الوردة هنئه ثم زادت بلهجة مقمعة بالفخر
والتفوق :

لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت إلى الكون من وراء
عيون الورود ، وسمعت همس الآثير بآذان الورود ، ولست
ثانياً النور بأوراق الورود . فهل يبنكن من تستطيع ان
تدعي شرفي ؟

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد يكون هائلاً قالت :
أنا أموت الآن. أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة
من قبلي . أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي
ولدت فيه ، وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر
الكائن وراء عرضيات الأيام والليالي .
وأطبقت الوردة أوراقها وارتعدت قليلاً ثم ماتت وعلى
وجهها ابتسامة علوية – ابتسامة من حقت الحياة أمانبه
– ابتسامة النصر والتغلب – ابتسامة الله .

الشاعر

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير
انها تجعلني أفكـر أبداً بوطن سعـري لا أعرفه ، وقلـاً أحـلامي
بأشـباح أرض قصـبة ما رأـتها عـينـي .

أنا غـريب عن أهـلي وخـلـاني ، فإذا ما لـقيـت واحدـاً مـنـهم
أقول في ذاتـي : من هـذا ، وكـيف عـرفـه ، وأـي نـامـوس
يـجـمعـي بـه ، ولـمـاـذا أـقـرـب مـنـه وأـجـالـسـه ؟

أـنا غـريب عن نـفـسي ، فإذا ما سـعـت لـسانـي متـكلـماً تستـغـرب
أـذـني صـوـتي ، وقد أـرـى ذاتـي الخـثـبة ضـاحـكة ، باـكـية ، مـسـبـلة ،
خـائـفة ، فيـعـجب كـيـانـي بـكـيـانـي ، وـتـسـفـر روـحـي روـحـي ،
وـلـكـنـي أـبـقـي مـجـهـولاً مـسـتـترـاً ، مـكـتـنـفـاً بـالـضـباب ، مـحـجوـباً
بـالـسـكـوت .

أـنا غـريب عن جـسـدي ، وكلـما وـقـفت أمامـ المـرـآة أـرـى
في وجـهـي مـا لا تـشـعـرـ به نـفـسي ، وأـجـدـ في عـينـي مـا لا تـكـنـه
أـعـماـقـي .

أـسـيرـ في شـوارـعـ المـدـيـنـةـ فـيـتـبعـيـ الفتـيـانـ حـارـخـينـ : هـوـذـا

الأعمى فلنعطيه عكازة يتو كأ عليها . فأهلب منهم مسرعاً . ثم
أنتي سرباً من الصبابا فيتشبن بأذبالي قائلات : هو أطربش
كالصخر فلنلأ أذنيه بأنقام الصباة والغزل . فأتر كهن راكضاً .
ثم أنتي جماعة من الكهول فيقرون حولي قائلين : هو آخرس
كالقبر فتعالوا نقوّم اعوجاج لسانه . فأغادرهم خائفاً . ثم أنتي
رهطاً من الشيوخ في يومئون نحوبي بأصحاب مرتعشة قائلين : هو
بحنون أضع صوابه في مسارح الجن والغيلان .

* .

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وقد جبت مشارق الأرض وغاربها فلم أجد
مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفي ولا من يسمع بي .
أستيقظ في الصباح فأجدني مسجونة في كهل مظلم تتدلى
الأفاعي من سقفه وتدب الحشرات في جنباته ، ثم اخرج إلى
النور فيتبعني خيال جسدي ، أما خيالات نفسي فتسير أمامي
إلى حيث لا أدرى ، باحثة عن أمور لا أفهمها ، قابضة على
أشياء لا حاجة لي بها ، وعندما يجيء المساء أعود وأضطبع
على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القناد فتراودني
أفكار غريبة وتناؤبني مبول مزعجة مفرحة موجعة لذذة ،
وعندما يتصف الليل تدخل عليَّ من شقوق الكهل أشباح
الأزمنة الغابرة وأرواح الأمم المنية فأحدق إليها وتحدق إليَّ ،

واخاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ثم احاول القبض عليها
فتتوارى مضمرة كالدخان .

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي .
أسير في البرية الخالية فأرى السوافي تصاعد مترا كضة من
أعماق الوادي إلى قمة الجبل ، وأرى الأشجار العارية تكتسي
وتزهر وتشعر وتتشر أوراقها في دقيقة واحدة ، ثم تهبط أغصانها
إلى الحوض وتحول إلى حبات رقطاء مرتعة . وأرى الأطيار
تنقل متصاعدة ، هابطة ، مفردة ، مولولة ، ثم تقف وتفتح
أجنحتها وتتحول نساء عاريات ، محلولات الشعر ، مددودات
الأعنق ، ينظرن إلى من وراء أجفان مكحولة بالعشق
ويبيسمن لي بشفاه وردية مغمومة بالعسل ويمددن خwoي أيدياً
بيضاء ناعمة معطرة بالمر واللبان ، ثم ينتفضن ويختفين عن
ناظري ويضمحللن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضمحكن
مني واستهزئن بي .

أنا غريب في هذا العالم .

أنا شاعر أنظم ما تثيره الحياة وأنثر ما تظمه ، ولهذا أنا
غريب وسابقى غربياً حتى تخطفى المنايا وتحملنى إلى وطني .

الكلام وطوائف المتكلمين

لقد ملل الكلام والمتكلمين .

لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين .

لقد ضاعت فكري بين الكلام والمتكلمين .

أستيقظ في الصباح فأرى الكلام جالساً بجانب مضجعي
على صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر إلى
بعيون ملؤها الدهاء والخبث والريبة .

اغادر فراثي واجلس إلى جانب النافذة لازيج نقاب النوم
عن بصيري بفنجان من القهوة فيتبيني الكلام وينتصب أمامي
رافقاً صارخًا معربداً ثم يدريده مع يدي إلى فنجان القهوة
ويرتشف منه بارتشارفي . وإذا قتاولت لفافة يتناولها معي . وإذا
رميت بها رمها معي أيضاً .

وأقوم للعمل فيلحق بي الكلام موسوساً في اذني ، مهمماً
حول رأسي ، مقرضاً في خلايا دماغي . فأحاول طرده فيضحك
مقهقاً ثم يعود إلى الوسوسة والهميمة والقرفة .

أخرج إلى الشارع فأرى الكلام واقفاً في باب كل حانوت ،
منبسطاً على جدران كل منزل . أراه في اوجه الناس وهم

صامتون . وفي حر كالم وسكناتهم وهم لا يدرؤن .
إن جالست صديقي يكون الكلام ثالثنا . وإن التقى
عدوّي ينتفع الكلام إذ ذاك ويتمدد ثم يتجزأ متحولاً إلى
جيش عرمرم أوله مشارق الأرض وآخره مغاربها . فإذا غادرته
هارباً ظلّ صدى كلامه يتايل مختبطاً في باطن اختباط الطعام
لا تُضمه المعدة .

اذهب إلى المحاكم والمعاهد والمدارس فأرى الكلام وأبا
الكلام وأخاه وهو يلبسون الكذب رداء والاحتيال عمامة
وحذاء .

ثم اسير إلى المعامل وإلى المكتب وإلى الإدارة فأجد
الكلام واقفاً بين أمه وعمته وجده و هو يقلب لسانه بين
شقيقيه الغليظتين وهن يبتسمون له ويضحكون مني .
وإذا بقي لي شيء من العزم والتجلد وزرت المعابد والهياكل
رأيت هناك الكلام جالساً على عرشه وهو متوج الرأس وفي
يده صولجان دقيق الصنع لطيف الجوانب ناعمه .
وعندما أعود في المساء إلى غرفتي أجد الكلام الذي سمعته
سيحابة نهاري متديلاً كالأفاعي من سقفها ، منسلاً كالعقارب
في قرانيها .

الكلام في الفضاء وما وراءه ، وعلى الأرض وتحتها .
الكلام على أجنبية الأثير وفي أمواج البحر وفي الغابات

والكموف وفوق قمم الجبال .

الكلام في كل مكان . فإلى أين يذهب من يريد المدوء
والسكونة ؟

أيوجد في هذا العالم طائفة من الحرسان لأنتمي إليها ؟
هل يرحمني الله وينجحني موهبة الطرش فأحبها سعيداً في
جنة السكون الأبدي ؟

أليس على وجه البساطة فرقة خالية من شقشقة اللسان وببلبة
الألسن حيث الكلام لا يباع ولا يشرى ، ولا يعطي
ولا يؤخذ ؟

للت شعرى ! أبين سكان الأرض من لا يعبد نفسه
متكلماً ؟ هل يوجد بين طفمات الخلق من لم يكن فيه مغارة
للاصوص الألفاظ !

لو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا ونجذبنا ، ولكنهم
أنواع وأشكال لا عداد لها .

فهناك طائفة « المستخفعين » الذين يعيشون في المستنقعات
النهار بطوله . وعندما يجيء المساء يقتربون من الشواطئ رافعين
رؤوسهم فوق سطح الماء مفعمين صدر الليل بضجيج قبيح
تأبه المسامع والأرواح .

وهناك طائفة « المستبعدين » والبعوض من مولدات

المستنقعات أيضاً ، وهم الذين يرددون حول أذنك بنغمة
تافهة رفيعة شيطانية ، سداها النكابة وحتمتها البغضاء .

وهناك طائفة « المستطحين » وهي طائفة غريبة ، في داخل
كل فرد من أفرادها حجر يدار بالكمول فيولد جمجمة جهنمية
اخفها أنقل بما تحدثه حجارة الرحي .

وهناك طائفة « المستبقرین » وهم الذين يلاؤن أجوافهم
حشيشاً ثم يقفون على منعطفات الشارع والأزقة مبطنين
الهواء بخوار ألطفة أغلظ من خوار الجاموس .

وهناك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصررون الساعات
بين مقابر الحياة وأجدانها محولين سكينة الدجى إلى عویل
أفرجه أحزن من نعيـب الـبـوم .

وهناك طائفة « المستشرين » وهم الذين لا يرون من
الحياة إلا أخشابها فيصررون الأيام بتجزئتها وتفصيلها ، محدثين
 بذلك خشخشة أعدتها أذنك بما تحدثه المنشير .

وهناك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نقوسهم
بطارق ضخمة فيخرج من أفواهمهم الفارعة قرقة ألطافها أغلظ
من فرقعة الطبول .

وهناك طائفة « المستعلكين » وهم الذين لا شغل لهم ولا
عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ويضغون الكلام ولكنهم
لا يلفظونه .

وهناك طائفة « المستهزئين » وهم الذين يستغيبون الناس
ويستغيبون بعضهم بعضاً ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة
من نفوسهم، ولكنهم يدعون الاستغابة باسم المجنون. والمجنون
ضرب من الجد ولكنهم لا يعلمون .

وهناك طائفة « الأنوال » التي تحوك الهواء بالهوا، ولكنها
تظل هي دون فمchan ولا سراويل .

وهناك طائفة « الزرازير » التي قال عنها الشاعر : لما حام
حافتها توهمت أنها صارت شواهينا .

وهناك طائفة « الاجراس » وهي التي تدعى الناس إلى
المياكل ولكنها لا تدخلها .

وهناك طوائف وعشائر لا تُعد ولا تحصى ولا توصف ،
أغربها في عقidi طائفة نافقة ولكنها غالباً الفضاء غطيطاً ولكنها
لا تدربي .

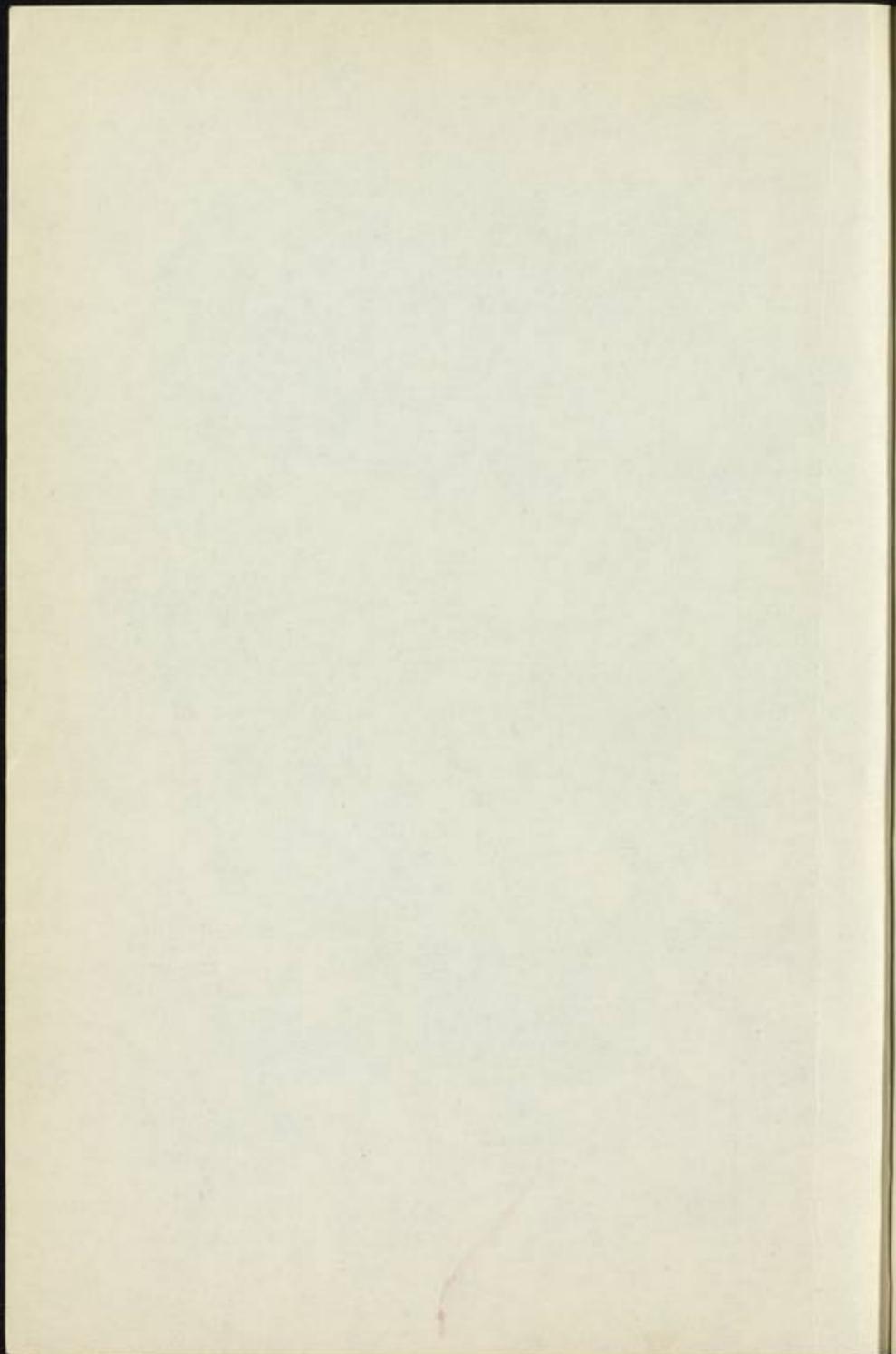
◦

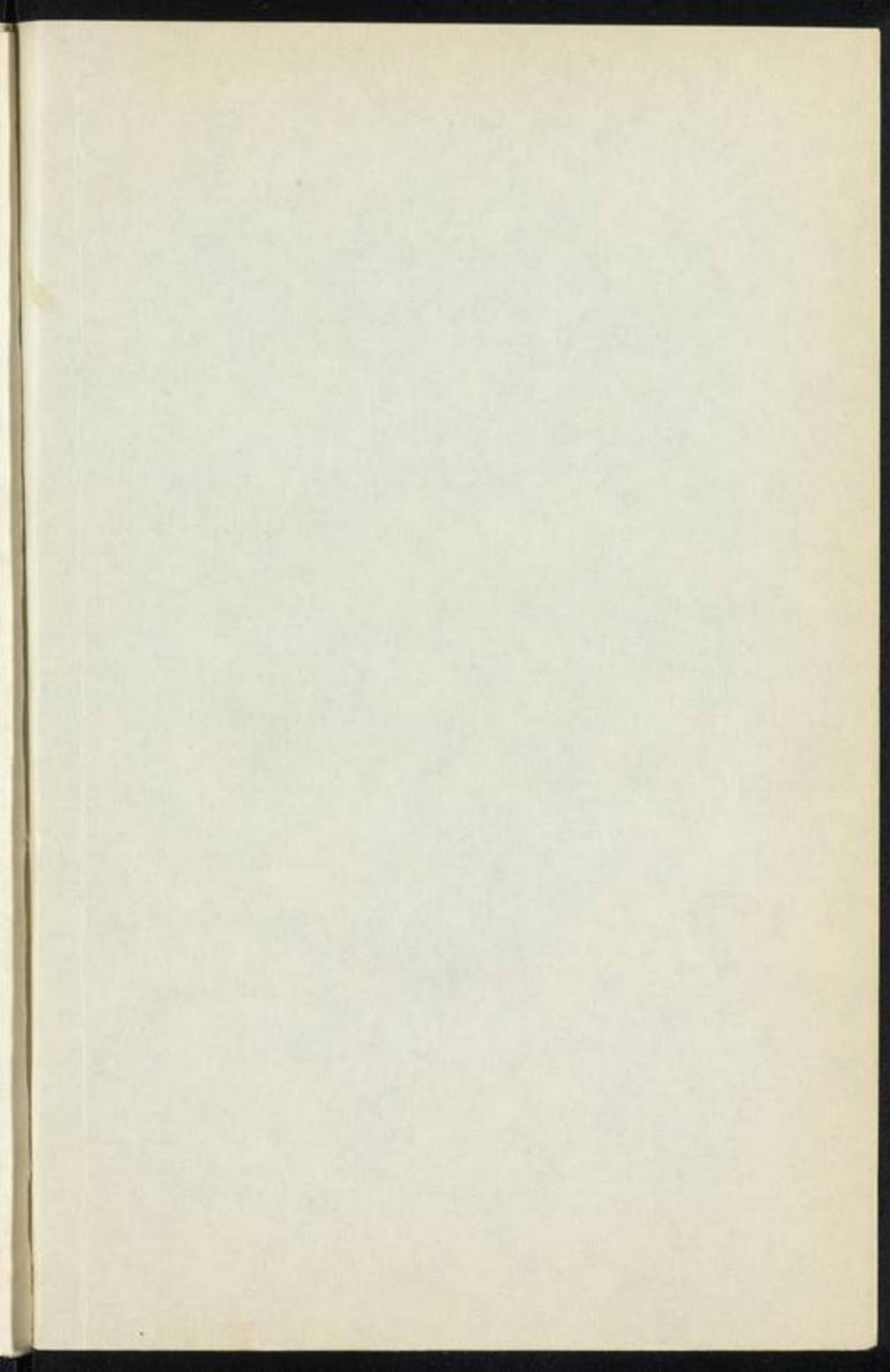
والآن ، وقد ابنت بعض « قرنبي » واشتزاري من
الكلام والمتكلمين ، أرأني كالطيب المعتل أو ك مجرم يقف
واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام .
وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر
الله ذنبي قبيل ان يرحمني وينقلني إلى غابة الفكر والعاطفة
والحق حيث لا كلام ولا متكلمين ؟

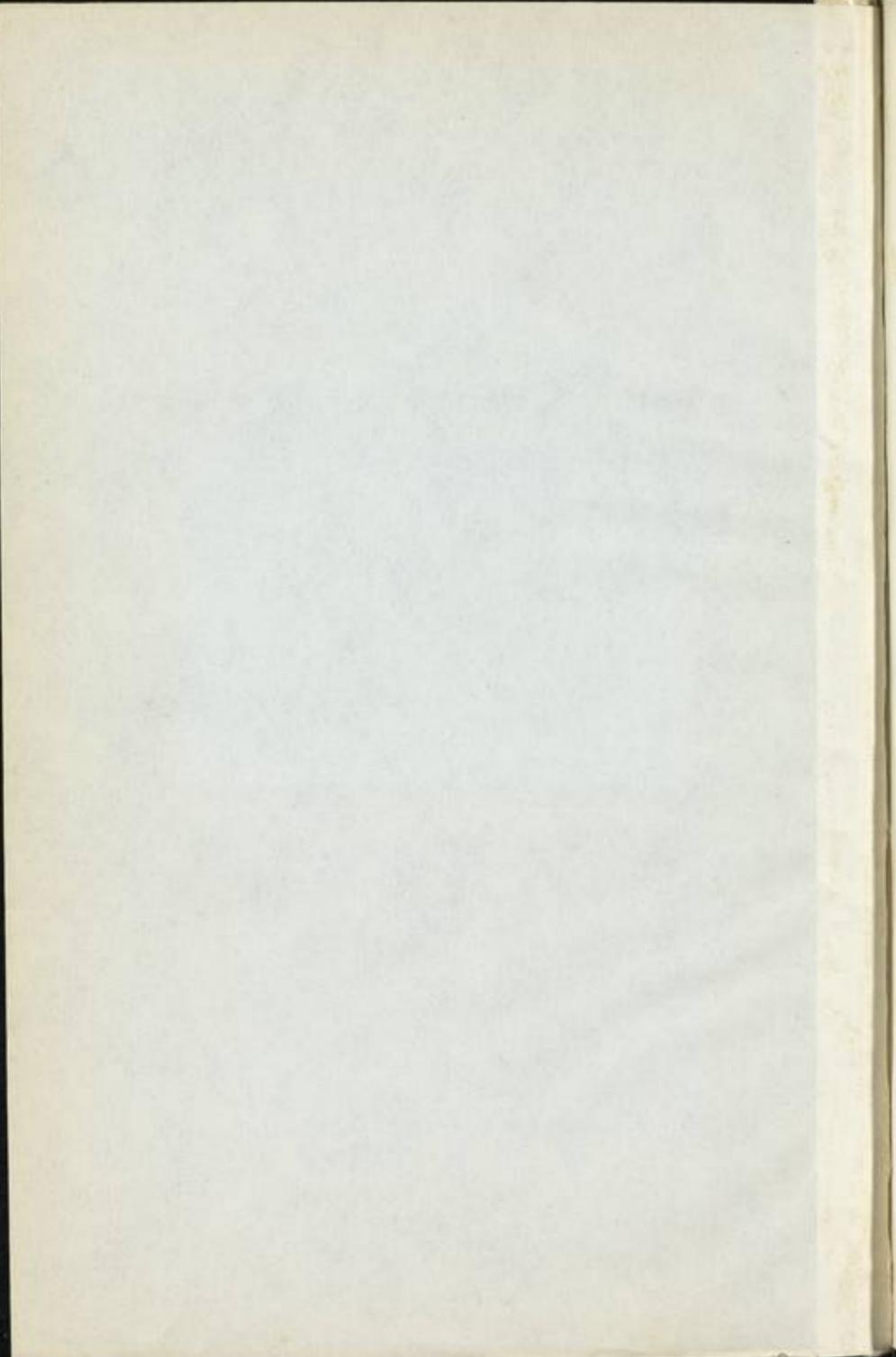
العواصف

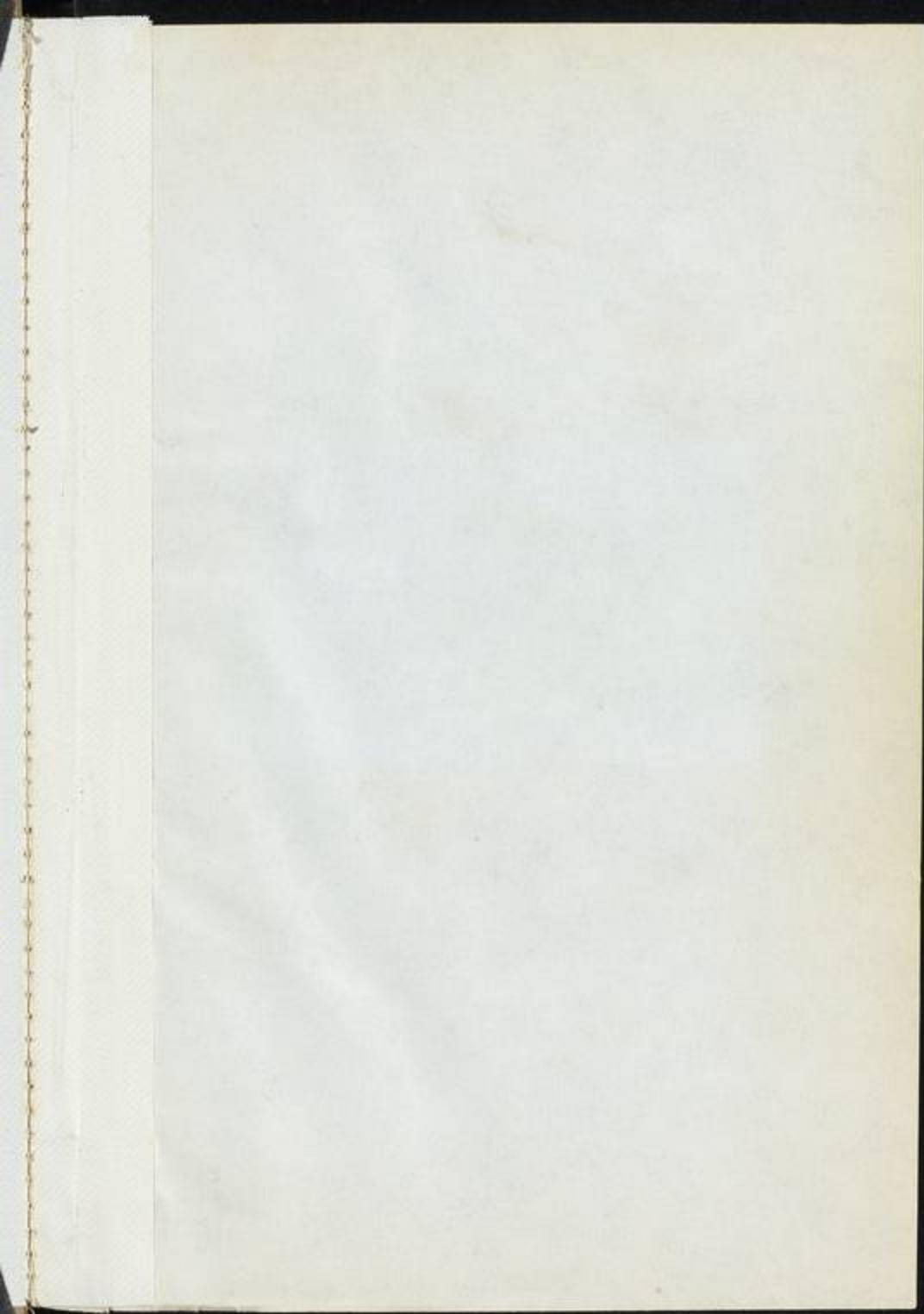
٥	حفار القبور
١٣	العبودية
١٨	المليك السجين
٢١	يسوع المصلوب
٢٦	على باب الهيكل
٣١	أيها الليل
٣٥	الحنينة الساحرة
٣٨	قبل الانتحار
٤١	يا بني أمي
٤٥	نحن وأنتم
٥٠	أبناء الآلهة وأحفاد القرود
٥٤	بين ليل وصبح
٦١	المخدرات والمباضع
٧٠	السرجين المفضض
٧٧	رؤيا
٨٠	في ظلام الليل
٨٣	الأضراس المسوسة

٨٧	مساء العيد
٩٢	الجبايرة
٩٧	مات أهلي
١٠٢	الأمم وذواتها
١٠٧	فلسفة المنطق
١١١	العاصفة
١٢٨	الشيطان
١٤٤	الصلبان
١٦٢	الشاعر البعلبكي
١٧٠	السم في الدسم
١٧٦	ما وراء الرداء
١٧٩	البنفسجة الطموح
١٨٥	الشاعر
١٨٨	الكلام وطوائف المتكلمين









LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072535287

الثمن ٢٠٠ ق. ل.